الفصل الثاني

الطغيان الشرقي

«السيد نام...
كيف أصدق أن الهرم الرابع مات؟
القائد لم يذهب أبدًا..
بل دخل الغرفة كي يرتاح..!»

نزار قباني

أولاً: ظاهرة.. وتفسيرها

رأينا طوال هذا البحث كيف كان تاريخنا كله يحكمه الطغاة من أقدم العصور إلى عصرنا الحاضر، فهو حكم استمر لعدة آلاف من السنين، حتى أصبحت لفظتا «الشرق» و «الطغيان» مترادفتين، أو كالمترادفتين، فهما تصادفانك متجاورتين متلاصقين في جميع الكتابات السياسية. صحيح أن أممًا كثيرة غيرنا حكمها طغاة، منذ أقدم العصور أيضًا، كما كانت الحال في اليونان القديمة، على سبيل المثال، حتى كان هناك عصر أطلق عليه المؤرخون اسم «عصر طغاة اليونان» و يؤرخون له منذ اعتلاء « كبسيلوس Cypselus» طاغية كورنثة الشهير عام 650ق.م. و ينتهي بطرد أبناء الطاغية

بيزستراتوس Pesistratus من أثينا عام 510 ق. م. أي ما يقرب من قرن ونصف وقعت فيها المدن اليونانية تحت سيطرة حفنة من الطغاة: «غير أن الملاحظ المدقق يجد أن نظام الحكم المطلق في الشرق أكثر شمولًا وأشد ظلمًا من نظيره في الغرب، وهكذا يظهر الاستبداد الشرقي على أنه الصورة الأشد قسوة للسلطة المطلقة»[1] ولقد سبق أن رأينا عبادة الحاكم في مصر القديمة، وبابل، وفارس.. إلخ حتى إن الإسكندر بعد أن غزا الشرق طلب من اليونانيين أن يسجدوا له كما يفعل الفرس معه، وكما كانوا يفعلون مع حكامهم من قبل، ورأينا أيضًا كيف كان فرعون الإله، وابن الإله، هو باعث الحركة، والنشاط، والقوة والحيوية والصحة لا في شعب مصر فحسب، بل في الطبيعة أيضًا، فهو إذا ما تولى العرش، حدث انتعاش في كل شيء، فيرتفع منسوب المياه في مجرى النيل، ويرتوي الزرع والضرع، وتعم البهجة جميع الكائنات، حتى تنتشي النباتات وتزدهر الطبيعة بأسرها. أما إذا مات اضطربت ظواهرها، واختل نظام الكون، واحتجبت الشمس وكف المطر! بل قد تؤدي وفاته إلى انهيار الناس، ونظام الحكم، والإمبراطورية بأسرها! ولم تكن هذه الظاهرة الغريبة التي تربط بين قوة الحاكم وجبروته من ناحية، وحيوية الشعب، ومسار الطبيعة ذاتها من ناحية أخرى، مقتصرة على مصر وحدها، وإنما وجدت في بلدان وشعوب شرقية عديدة، وفي عصور مختلفة، على نحو ما كانت معتقدات الناس، مثلاً، في العصر العباسي![2].

(1) Karl Wittfogel: Oriental Despotism: A. Comparative Study of Total Power P. 1. New Haven, 1957.

(2) ولم يجد الحاكم بأمر الله (985 - 1021) سادس الخلفاء الفاطميين في مصر، أي غضاضة في ادعاء الألوهية، ولم ينقذ البلاد من شره سوى أخته «ست الملك» التي دست له رجلين اغتالاه وأخفيا أثره!.

ومـن الطبيعي ألا نجد مثل هذا الارتباط بين شـخصية الحاكم ومسـار الطبيعـة، أو التوحيد بينه وبين النـاس في هوية واحدة، إلا في نظام الطغيان وحده، فيسـتحيل أن ينهار الناس أو يسـقط الحكم، عندما يموت الحاكم في دولـة ديمقراطية، بالغًا ما بلغ حبهم له وتعلقهم به (فقد حدث، مثلًا أن حزن الأمريكيـون بعد أن اغتيل كنيدي بغتة، لكنهـم لم ينهاروا. كما حدث أن أسقط الإنجليز تشرشل رغم احترامهم وتقديرهم له، وفعل الفرنسيون الشيء نفسه مع ديجول) أما الطاغية عندنا فهو الشعب، وهو مصدر كل السلطات، بطريق مباشر، أو غير مباشر، وأي نقد لسـلوكه أو هجوم على سياسته، هو نقـد وهجوم على البلد بأسره لأنه هو البلـد. الحرية له وحده، والنقد يصدر مـن جانبه فحسـب، ولا يجوز لأحد غـيره أن يجرؤ على ممارسـته(*). إنه يمد الحبل السري إلى جميع أفراد المجتمع فيتنفسون شهيقًا كلما تنفس، ولا تعمل خلاياهـم إلا بأمـره، إنه يملأ كل ذرة غبار في الجو مـن حولهم، فهو «الزعيم الأوحـد»، و «الرئيـس المخلـص» و «مبعـوث العنايـة الإلهيـة» و «القائد والمعلـم» والملهـم الذي يأمر فينصـاع الجميع لأمره. وهو يعـبر عن مصالح

(*) يروي الأستاذ مصطفى أمين أن عبد الناصر أراد أن يضع «أنيس منصور» في السجن الحربي لأنه تجرأ وكتب مقالًا يتهم فيه «فلانًا» بأنه حرامي، وعندما قلت له: «ولكني كنت معك من أسبوع واحد في بيتك وقلت لي إن فلانًا هذا حرامي بالفعل، وأنه يستغل نفوذه؟ قال الرئيس: معلش. أنا أشتمه، أما أنتم فلا..!». ويستطرد مصطفى أمين قائلًا: «كان بين مكتب الرئيس في منشية البكري وبين مجلس الأمة ميكروفون يسمع منه الرئيس ما يدور في الجلسات! وفتح عبد الناصر الميكروفون فإذا بنائب المحلة الكبرى يهاجم الوزراء هجومًا عنيفًا، وقال لي عبد الناصر إنه في هذه اللحظة فكر أن يذهب إلى مجلس الأمة ليضرب نائب المحلة، لكن النائب سكت فجأة! وهدأ عبد الناصر وعدل عن ضرب النائب!. جريدة الأخبار عدد 3 أغسطس عام 1992.

الناس، ويعرفها أفضل منهم، لأنهم «قُصّر» لم يبلغوا سن الرشد بعد، وأنى للقاصر أن يعرف الصواب من الخطأ، أو أن يفرق بين الحق والباطل!

وانبعثت هذه الظاهرة الغريبة، التوحيد بين الحاكم والشعب، ليصبح «الكل في واحد»، في الليلة التي مات فيها عبد الناصر 28 سبتمبر 1970، عندما ذهل العالم لذلك الذي صنعه العرب على امتداد أقطارهم، ولاسيما ما فعله المصريون من بكاء وعويل على نحو هستيري، «وعاشت الأمة العربية، ومصر بالذات، ثلاثة أيام كئيبة»[1] ثم كانت الجنازة التي سار فيها ملايين البشر، يبكون ويصرخون ويلطمون الخدود.. إلخ». ومن وجهة النظر الغربية فإن ما جرى في أسبوع وفاة عبد الناصر بدأ غير مفهوم على الإطلاق لدى العقل الأوروبي، إذ كان صعبًا على قوم تخضع حياتهم لعمليات حسابية عقلية، أن يفهموا تلك الحالة من الاكتئاب الجماعي التي بدت لهم كوباء انتشر خلال ساعات معدودة، فاستسلم الناس له، بحيث فقدوا القدوة على تمييز ما يفعلون، فغاب عقلهم الواعي، وتركوا قيادتهم لمجموعة من الانفعالات الحادة. ولأن صورة عبد الناصر في المنظور الغربي الاستعماري، بل وفي منظور آخرين ممن يعادون هذا الغرب الاستعماري، كانت صورة ديكتاتور وطاغية يحتقر الشعب بقسميه: الواعي وغير الواعي. المتكلم والصامت، المتحرك والصابر، فيعامل الأولين بالمعتقلات والسجون، ووسائل القهر والتعذيب، كتعبير عن ازدرائه لإرادتهم. ويُخضع الآخرين لعمليات غسل مخ عنيفة، تحول بينهم وبين الوعي بمصالحهم. فقد كان طبيعيًّا عند تطبيق المحكات العقلانية الأوروبية أن يفرح المصريون لموت الطاغية

(1) صلاح عيسى «مثقفون وعسكر» ص 503 مكتبة مدبولي بالقاهرة عام 1986.

الذي احتقرهم وعذبهم وامتهن إرادتهم. أو أن يكتفوا بالترحم عليه انصياعًا للمشاعر الدينية التي تؤثم الشماتة في الموت، فإذا حتم الأمر بعض المبالغة، فليكن الدمع قليلاً. أما أن تنتشر تلك الحالة العنيفة من «الاكتئاب الجماعي» فإن الأمر يصبح عسيرًا على الفهم[1].

ولقد عكف المفكرون، والكتاب على تحليل هذه الظاهرة الغريبة في محاولة لإيجاد تفسير لها، وظهرت بالفعل عدة تفسيرات مختلفة، كان أضعفها القول إن مواكب الدموع العربية، عامة - والمصرية بصفة خاصة - التي ودعت عبد الناصر، كانت تقديرًا لإيجابيات الرجل، وخصوصًا سياسته المعادية للاستعمار، و إنجازاته الاجتماعية المتقدمة.. إلخ.

1- إن هذه الظاهرة نفسها تكررت في يومي 9 و 10 يونيو عام 1967 بعد هزيمة بشعة لم يكن فيها شيء من «الإنجاز» بقدر ما كان الدمار والانهيار كاسحًا؛ فقد خرج الناس في الشوارع يطالبون عبد الناصر بالبقاء في منصبه وألا يتنحى! وذلك:

أ - بعد أن ضاع خُمس الأراضي المصرية.

ب- وبعد أن أضاع ما كان بيد العرب من الأراضي الفلسطينية إلى الضفة الغربية وغزة حيث التهمتها إسرائيل، وأصبح غاية المنى والأمل عند العرب اليوم أن يعود الوضع إلى ما كان عليه قبل 1967 - أي قبل أن تضيع غزة والضفة والجولان - وهو حلم عسير المنال.

(1) المرجع السابق ص 504 - 505.

جـ- وبعد قتل آلاف المصريين والعرب، وإصابة وتشويه وفقدان آلاف غيرهم، في مسرحية تافهة لم تدر فيها معركة حقيقية واحدة.

د - الأخطر من ذلك كله تحطيم نفسية الإنسان المصري، والعربي عمومًا، بعد أن كان أكبر قوة ضاربة في الشرق الأوسط، عندما اكتشف أن عالم عبد الناصر لم يكن سوى أبنية من الورق تهدمت في ست ساعات، وجاء السقوط سريعًا وخاطفًا بينما عنتريات عبد الناصر الكلامية لم تغادر الآذان بعد!.

2- إن هذه الظاهرة نفسها تكررت أيضًا عندما نظم السودانيون لعبد الناصر استقبالًا بالغ الحرارة، حين سافر يشهد مؤتمر القمة في الخرطوم الذي عقد في أغسطس 1967. وبعد ما يقرب من شهرين على الهزيمة حتى قالت الصحف الغربية - وخصوصًا الأمريكية - وهي تبدي دهشتها لهذا الاستقبال الحار: إنه لأول مرة في التاريخ يحظى قائد مهزوم بذلك الاستقبال الذي ينـدر أن يحظى به الغزاة المنتصرون![1].

لهذا كله فإن علينا أن ننتقل إلى تفسيرات أخرى لهذه الظاهرة الغريبة.

ثانيا: طبيعة العبيد

كانت هناك محاولات كثيرة لتفسير «الطغيان الشرقي»، وللوحدة التي جعلت الحاكم الشرقي يبتلع كل شيء في الدولة، والاستسلام العجيب من

(1) المرجع السابق ص 505.

جانب المواطنين لهذا الضرب من الحكم الذي انفرد به الشرق. فذهب البعض إلى القول إن الشرقيين هم بطبيعتهم «عبيد»، يعشقون الطغيان، ويستمتعون بالقسوة، ويخلقون الطاغية إذا عزَّ وجوده. ولقد نقل المقريزي عن كعب الأحبار قوله للخليفة عمر بن الخطاب:

«إن الله عندما خلق الدنيا جعل لكل شيء شيئًا، فقال الشقاء أنا لاحق بالبادية، وقالت الصحة وأنا معك.. وقالت الشجاعة أنا لاحقة بالشام، فقالت الفتنة، وأنا معك.. وقال الخصب أنا لاحق بمصر، فقال الذل وأنا معك!»[1].

غير أن هذه العبارة الأدبية لا تضع نظرية فلسفية، وإن كانت تشير إلى ما كان يعاني منه المصريون من قهر الحكام، وقسوتهم وظلمهم، ثم استسلام المواطنين لهذه المعاناة وتقبلهم للقهر والقسوة في استكانة ذليلة!.

أما أقدم نظرية تفسر حكم الطاغية في الشرق واستسلام المواطنين فهي نظرية أرسطو الذي نقل هيراركية الوجود من ميتافيزيقاه إلى مجال السياسة والاجتماع، فذهب إلى أن شعوب العالم ليست على صنف واحد، وإنما هي تنقسم ثلاثة أقسام، يتربع الشعب اليوناني على قمتها، وما يهمنا هو أنه كان يعتقد أن هناك أناسًا مهيئين بطبيعتهم لأن يكونوا عبيدًا، فقد خلقوا لخدمة غيرهم، فالتفرقة بين الأدنى والأعلى موجودة في الطبيعة، وفي جميع الأشياء. ومن الأفضل أن يحكم الجانب الأعلى، وأن يطيع الجانب الأدنى. ومن هنا فإننا نجد أن بعض الناس هم بطبيعتهم «سادة» وبعضهم الآخر عبيد، فالرق

(1) المرجع السابق ص 506.

بالنسبة لهؤلاء نافع بقدر ما هو عادل. وينتهي أرسطو من ذلك إلى الحكم على بعض الأجناس بأنهم رقيق بالطبع، والبعض الآخر بأنهم أحرار بالطبع. وقد جعل من الإغريق السادة الأحرار. فهم لا يجوز استرقاقهم لأنهم ورثوا الروح العالية والشجاعة. أما الشرقيون فهم بطبيعتهم عبيد[1]، وعلاقة السيد بالعبد هي علاقة الطاغية، أو الحاكم المستبد برعاياه، ما دام هذا الحاكم لا يعترف بحقوق لهؤلاء الرعايا، ولا ينظر إليهم إلا بوصفهم موجودات دنيا، أو مجرد أدوات يسخرها لأغراضه ويأمرها فتطيع!.

ومن هنا فإننا نجد المعلم الأول في رسالة إلى تلميذه الإسكندر الأكبر ينصحه فيها بمعاملة اليونانيين معاملة القائد، في حين أن عليه أن يعامل الشرقيين معاملة السيد لعبيده!

وهو يعتقد أن الأزواج في الشرق يعاملون زوجاتهم على أنهن جوار، والأعجب من ذلك كله أن الشرقيين يستسلمون لطغيان الحاكم على أنه أمر طبيعي لا يجدون فيه غضاضة، فهم لا يحتجون ولا يتذمرون، في حين أن الرجل الأوروبي الحر لا يستطيع أن يتحمل هذا الضرب من الحكم فيفر منه بشتى الطرق، يقول: «يتمثل الطغيان بمعناه الدقيق في الطغيان الشرقي؛ حيث نجد لدى الشعوب الآسيوية، على خلاف الشعوب الأوروبية، طبيعة العبيد، وهي لهذا تتحمل حكم الطغاة بغير شكوى أو تذمر!»[2].

ولقد ظلت نظرية أرسطو عن «الطغيان الشرقي» سائدة في الفكر السياسي مع تعديلات طفيفة. ففي النصف الثاني من القرن الثامن عشر

(1) أرسطو «الأخلاق» 1166 - ب، ومجموعة مؤلفاته - المجلد الثاني ص 1834.
(2) أرسطو «السياسة» 1285 - أ.

ذهب مونتسكيو (1689 - 1755) إلى أن الاستبداد نظام طبيعي بالنسبة للشرق، لكنه غريب وخطر على الغرب. غير أن «مونتسكيو» يضيف إلى ذلك الربط بين الاستبداد والدين، فيرى: «أن الحكومة المعتدلة هي أصلح ما يكون للعالم المسيحي، وأن الحكومة المستبدة هي أصلح ما يكون للعالم الإسلامي!»[1]. دون أن يفسر لنا من أين جاءت هذه القسمة الغريبة التي تجعل الديمقراطية هي الحكم المناسب للعالم المسيحي (وهو هنا يقصد العالم الغربي على وجه التحديد، فالدولة المسيحية في الشرق لابد أن تكون حكومة استبداد بحكم المقدمة السابقة»، والحكم الاستبدادي هو أنسب أشكال الحكم للعالم الإسلامي. لاشك أنه لم يقرأ شيئًا عن الإسلام الذي يدعو إلى حرية العقيدة، والتفكير، و إلى الشورى بين الناس دون أن يذهب قط إلى «طاعة السلاطين الفائقة» لأنهم ترتيب من الله كما قال القديس بولس. ولم يقل الإسلام إن كل سلطة سياسية هي مستمدة من الله، وهو المبدأ الذي يبرر الطاعة المطلقة، والاستسلام الكامل للطاغية أينما وجد. ولم يصف الشعب بأنه مجموعة من «الحمير» يريدون تلقي الضربات كما فعل مارتن لوثر... إلخ.

لكن لكي نكون منصفين فلابد لنا أن نقول إن العذر الوحيد الذي يمكن أن نتلمسه لمنتسكيو في فكرته العنصرية الغربية؛ هي أن التاريخ الإسلامي كله كان يسيطر عليه الطغاة، فظن - للأسف - أن هذا هو ما يدعو إليه الإسلام. وأن الحاكم المسلم لابد أن يكون طبيعته طاغية، وأن المسلمين لا يصلحون للحكم الديمقراطي مادامو قد أذعنوا قرونا طويلة لهذا الضرب

(1) مونتسكيو «روح الشرائع» المجلد الثاني ص 178، ترجمة عادل زعتر.

الكريـه من الحكم دون أن يتلمسـوا الطريق إلى الحريـة، أو أن يحاولوا أن يسـتبدوا بنظام الاسـتبداد نظامًا مـن الحكم يحترم آدمية الإنسـان، ويعطيه حريته وكرامته.

أما أرسـطو فقد كانت نظريته عنصرية هي الأخرى، فلا شك أن نظرة الاسـتعلاء كانـت جزءًا من التفكير الفلسـفي عنـد اليونـان، فهم وحدهم الحريصون على القيم الإنسـانية والمثل العليا، وهم «سادة»، وبقية الشعوب «برابرة» و «همج» وعبيد!

غـير أن هذه النظـرة، فيما يبدو، لم تكـن نظرة اليونانيـين وحدهم، إذ يروى هيرودوت أن قمبيز، الإمبراطور الفارسي الشهير. كان يعد «الأيونيين والأيوليـين» عبيـدًا ورثهم عن أبيه[1] ويعلق الدكتـور أحمد بدوي على هذه العبارة بقوله «تلك كانت نظرة الغالب إلى المغلوب في العالم القديم (وهي لم تزل كذلك حتى يومنا هذا) يفرض عليه سلطانه، ويستغل أرزاقه، ويسوقه مكرها إلى الحرب.»[2].

ولم تبعد نظريـة هيجل عن ذلك كثيرًا، فهو يعتقد أيضًا أن الطغيان في الشرق يرجع إلى أن «الشرقيين لم يتوصلوا إلى معرفة أن الروح أو الإنسان - بما هو إنسـان - حر، ونظرًا إلى أنهم لم يعرفوا ذلك، فإنهم لم يكونوا أحرارًا. وكل مـا عرفـوه أن شـخصًا معينًا حرًّا (هـو الحاكم الطاغية وبقية الشـعب عبيد له بالطبيعة)، ولكن على هذا الاعتبار نفسـه، فإن حرية ذلك الشخص

(1) هيرودت يتحدث عن مصر ص 59 - ترجمة د. محمد صقر خفاجة - ومراجعة د. أحمد بدوي - دار القلم بالقاهرة عام 1966.
(2) المرجع السابق في الصفحة نفسها.

الواحـد لم تكـن إلا نزوة شـخصية وشراسـة أو انفعالًا متهورًا وحشـيًّا»، أو ترويضًـا واعتـدالًا للرغبات لا يكون هو ذاته سـوى عرض من أعراض الطبيعة، أي مجرد نزوة كالنزوة السـابقة. ومن ثم فإن هذا الشـخص الواحد ليس إلا طاغية لا إنسانًا حرًّا»[1].

وهكذا يرد هيجل عبودية الشرق إلى انعدام «الوعي الذاتي» فإن الشعب في الصين ليس لديه عن نفسه إلا أسوأ المشاعر، فهو لم يخلق إلا ليجر عربة الإمبراطور، وهذا هو قدره المحتوم! وعاداتهم وتقاليدهم، وسلوكهم اليومي يدل على مبلغ ضآلة الاحترام الذي يكنونه لأنفسهم كأفراد وبشر»[2].

وعـلى كل حـال فإن جميع النظريـات التي تفرق بـين البشر، وتتحدث عـن «طبيعة خاصة» عند الشرقيين أو غيرهم هي نظريات ظاهرة الخطأ. إن كل ما نسـتطيع أن نقوله هو أن الشـعوب التي اعتادت حكم الطاغية لعدة آلاف من السـنين، قد نجد لديها اسـتعدادًا للتسـليم بهذا الشكل من أشكال الحكم أسرع من غيرها، كما أننا نجدها لا تمانع في الحديث عن «إيجابيات» الطاغيـة وتمتدح أعماله «الجليلة» دون أن تجد في ذلك حرجًا ولا غضاضة!. ولا شـك أن الأمم الشرقية أصبحت تنشـد الحكم الاسـتبدادي، لطول إلفها له، ومازال أبناؤها يتسـابقون في تدبيج القصائد التـي تتغنى بأياديه البيضاء عـلى النـاس، ولم يعد «الحاكـم الشرقي» يجـد حرجًا في تسـخير الصحافة، والإذاعة والتليفزيون، وجميع وسائل الإعلام للحديث عن أمجاده وبطولاته وانتصاراتـه، حتى لـو أنه انهزم هزيمة منكرة - فيما أسـماه «بأم المعارك»! -

(1) «العقل في التاريخ» ص 87 من ترجمتنا السابقة.
(2) «العالم الشرقي» ص 95 من ترجمتنا السابقة.

ومن مظاهر التقديس للحاكم عندنا أن تتصدر صورة جميع الصحف، وأن تكون تنقلاته وأخباره - حتى ولو كانت يمارسه رئيس الدولة في حياته الروتينية المألوفة - هي الخبر الأول في جميع نشرات الأخبار، ولا بأس من تكرارها في كل نشرة!.

ثالثًا: نظرية فيتفوجل Karl Wittfogel (1896 - 1988)

عكف المفكر الأمريكي الجنسية، الألماني الأصل، «كارل فيتفوجل» على دراسة بلدان الشرق، ونظمها السياسية والاقتصادية ليقف على ما أسمته الماركسية «بالنمط الآسيوي للإنتاج»، محاولاً صياغة نظرية طموح، يحاول بها تفسير التاريخ البشري كله، عائدًا إلى العصر الحجري لكي يبرهن على وجود صراع دائم بين المجتمعات القائمة على الاقتصاد الفردي الحر والمجتمعات الاستبدادية ذات النمط الشرقي، والقائمة على اقتصاد الدولة. وفي عام 1957 أصدر كتابًا ضخمًا في مجلدين، قضى في إعداده، على ما يقول، نحو ثلاثين عامًا. وعنوان الكتاب الاستبداد الشرقي: دراسة مقارنة للسلطة المطلقة».

يرى «فيتفوجل» أنه كان من نتيجة الثورة الصناعية والتجارية في القرنين السادس عشر والسابع عشر، أن انتشرت التجارة الأوروبية والنفوذ الأوروبي، في أرجاء الأرض، وقام عدد من الرحالة الغربيين، من الممتازين عقليًّا، وكذلك بعض الأساتذة والعلماء الأوروبيين باكتشاف عقلي لا يقل أهمية عن المكتشفات الجغرافية الكبرى التي تمت في هذه الحقبة.

فلقد تأمل هؤلاء الرحالة حضارات الشرق الأدنى مصر والشام والعراق

وفارس، وكذلك الهند، والصين، ولاحظوا سمة خاصة فيها جميعًا، وهي تظهر بوضوح في المجتمعات الشرقية، ولا توجد في أوروبا في العصور القديمة، ولا في العصر الوسيط، ولا في العصر الحديث. ولقد أطلق الاقتصاديون الكلاسيكيون على هذه السمة اسم «المجتمع الآسيوي أو الشرقي»[1].

ويظهر العنصر المشترك بين هذه المجتمعات الشرقية المختلفة، بوضوح، في القوة الاستبدادية للسلطة السياسية عندهم، وبالطبع، لم تكن حكومة الطغيان مجهولة في أوروبا، فقد توافق ظهور النظام الرأسمالي مع ظهور الدولة ذات السلطة المطلقة. غير أن الملاحظ المدقق يجد أن نظام الحكم المطلق في الشرق كان أكثر شمولًا، وأشد ظلمًا من نظيره في الغرب، فبدا لهم الاستبداد الشرقي بوصفه الصورة الأشد قسوة للسلطة المطلقة[2].

ولقد اهتم الفلاسفة الذين درسوا الحكومات الشرقية من أمثال مونتسكيو بالآثار المؤسفة للاستبداد الشخصي، أما الذين درسوا الاقتصاد فقد اهتموا بمراتب الملكية، ودرجات الإدارة. واندهش الاقتصاديون الكلاسيكيون، بصفة خاصة، من الأعمال المائية الهائلة التي تقوم بها هذه الشعوب لأغراض الري، ووسائل الانتقال والمواصلات، كما لاحظوا أن الحكومة في كل مكان من الشرق كانت أعظم مالك للأرض. ويسوق «فيتفوجل» الكثير من المعلومات، والتفصيلات الدقيقة عما يسميه «بالنظام المائي» أو «المجتمع المائي الإداري». ويستنبط من هذه المعلومات قوانين عامة لهذا المجتمع تنطبق على المكسيك، وبيرو، ومصر، والعراق، والهند،

(1) Karl Wittfogel: Oriental Despotism, p.1

(2) Ibid

والصين.. إلخ. فهو يبدأ بالفكرة نفسها التي أبرزها ماركس عن أهمية الري الصناعي في تلك البلدان: ويستنتج منها ضرورة تعبئة العمالة الضخمة لهذا الغرض، مع إيجاد تقسيم جيد للعمل بين فرقها. ولا يمكن أن يقوم بعملية تعبئة العمل وتقسيمه والاستفادة منه على نطاق البلد سوى سلطة مركزية طاغية، الأمر الذي لم يحدث بالصورة المستمرة نفسها في البلاد التي تعتمد على ماء المطر. وفي هذه المجتمعات تكون الدولة، كما ذكرنا، هي مالكة الأرض. أما الفلاحون، فهم منتفعون فقط، ويترتب على ذلك أن تصبح الملكية الفردية ضعيفة ضعفًا شديدًا في النمط الآسيوي، وإن كانت موجودة، غير أن الأشخاص الذين ينتمون إلى جهاز الدولة هم الذين كانوا، في الأعم الأغلب، أصحاب الممتلكات الفردية، ويتوقف دوام المجتمع المائي على تمسك الدولة بمحافظتها على صفتها المالكة الكبرى - أي على أن تكون لها اليد العليا بالمقارنة بالملكية الفردية[1].

وهكذا تعتمد نظرية «فيتفوجل» في الاستبداد الشرقي على وجود النهر الذي يتطلب بالضرورة قيام سلطة مركزية استبدادية تقوم بثلاث مهام جوهرية لتحقيق الإنتاج الزراعي هي:

1- مهمة توصيل المياه من النهر إلى الأرض.

2- مهمة حماية الأرض الزراعية من غوائل الفيضان.

3- مهمة توفير مياه الري في فترات التحاريق[2].

(1) أحمد صادق سعد «تاريخ مصر الاجتماعي الاقتصادي» ص 8 - دار ابن خلدون - بيروت عام 1979.

(2) إبراهيم عامر «مصر النهرية» مقال بمجلة الفكر المعاصر - إبريل 1969.

ولابد، لتحقيق هذه المهام، من شـق الـترع، والقنوات، والمصارف عبر المسـاحات الواسـعة من الأراضي الزراعية لتوصيل المياه إلى الحقول. ولا بد أن تكون ضفاف النهر مرتفعة على نحو مناسب، وهو ما يتم بإقامة الجسور وصيانتهـا، وتهيئة الاسـتعدادات الدائمة لترميمها عـلى وجه السرعة في حالة وقـوع أي انهيار في جزء منها. ولا بد من بناء القناطر والخزانات والسـدود، وكافة وسـائل ضبط ميـاه النهر لحماية الأراضي الزراعيـة من الفيضان، من ناحية، ولحجز جزء من مياهه يمكن استخدامه في الري على مدار السنة، من ناحية أخرى. ثم لابد خلال ذلك كله، من إقرار نظام شامل للري يسري في طول البلاد وعرضها[1].

وهذه المهـام جميعًا، والأعمال اللازمة لتحقيقهـا لا يمكن أن تتم بالجهد الفـردي، مهما بلغ هذا الجهد، بينما هي أعـمال لا غنى عنها للإنتاج الزراعي بـأي حال من الأحوال، ولهذا فإن فيتفوجل يشـبهها بأعمال الحرب، حتى إن بعض البلاد تستدعي رجالها لأعمال السخرة بالتفسير نفسه الذي تدعوهم به للحرب[2]. ولا يتصور أحد أن يقوم فرد من الأفراد بشق ترعة أو مصرف، أو بناء خزان أو سد، أو أن يفرض لنفسه نظامًا خاصًا لري حقله، كما لا يتصور أن يقـوم أحد بالقتال بمفرده. ومن ثم، فلا بد من وجود عمل جماعي، وهو في الوقت ذاته لا يمكن أن تقوم به عائلة أو حتى جماعة قروية، وإنما هو عمل قومي يتم على مسـتوى الدولة، ويتخذ أشـكالاً كثيرة ابتداءً من السخرة إلى نظام التعاون، وهكذا يقتضي نظام الري الموحد قيام سلطة سياسية مركزية استبدادية، تحولت إلى ما نسميه «بالطغيان الشرقي»!.

(1) المرجع السابق.

(2) K. Wittfogel: Op. Cit., p. 27.

ومن ثم فإن «فيتفوجل» يعتقد أن السلطة المطلقة التي يمارسها الحاكم على الأيدي العاملة من رعاياه. مكنت حكام «سومر»، و «بابل»، و «مصر» من بناء قصور، وحدائق ومقابر هائلة. وهذه السلطة المطلقة هي التي مكنت الحاكم أيضًا من أن يكون الكاهن الأكبر، وأن يكون إلهًا، أو ابن الإله، ومن إقامة المعابد الضخمة والآثار الهائلة التي لا تزال قائمة حتى الآن، وهي التي لم يكن من الممكن إقامتها إلا بالسخرة، والسيطرة التامة على أعداد هائلة من الأيدي العاملة. بل لقد انتقل هذا النموذج في العمل إلى بلدان أصغر، فبنى «الملك سليمان»، كما تقول نصوص التوراة، معبده الجميل بفريق عمل يشبه فريق العمل عند البابليين استمر يعمل أربعة أشهر كل عام[1].

وهؤلاء الحكام «الطغاة» الذين أقاموا هذه الآثار الهائلة، كانوا بالضرورة قادرين على التنظيم بكفاءة عالية، فأوجدوا أدواته الفعالة منها السجلات، وحروف الكتابة، ونظام المراقبة الدقيق، واللوائح والقوانين التي توجه نشاط الأهالي توجيهًا إجباريًّا. وفي حين أن التجار، فرادى أو جماعات، بادروا بإقامة الاتصالات البرية المنتظمة مع أوروبا الإقطاعية ذات المجتمع اللامركزي، فإن الدولة هي التي تولت تنظيم البريد في «العالم المائي» باعتباره مؤسسة سياسية تمكنها من السيطرة على وسائل النقل، ومن إعداد شبكة كاملة من المخابرات والرقابة. كما أن القدرة على تحريك الأعداد الغفيرة من العاملين قدمت لتلك الدولة فرصة تكوين جيوش مهولة، أو إرساء المبادئ الأولى للفنون الحربية ونظرياتها[2].

(1) K. Wittfogel: Ibid., p. 39

(2) أحمد صادق سعد «تاريخ مصر الاجتماعي والاقتصادي» ص 8 - دار ابن خلدون - بيروت 1979.

تلك كانت الصورة الاقتصادية التي رسمها «فيتفوجل» لمجتمع النهر، وللمجتمع المائي الذي يعتمد على النهر في ري أراضيه الزراعية، وما يستتبع ذلك من مهام تستدعي قيام سلطة مطلقة استبدادية تفرض على الناس العمل الجماعي. لكن ما الصورة السياسية والاجتماعية والأخلاقية لهذا المجتمع؟ ما الذي يحدث للفرد وتطلعه إلى الاستقلال الذاتي في ظل هذه السلطة المطلقة؟.

يجيب بأن السلطة المطلقة التي يمارسها «الطغيان الشرقي» لا تتحمل وجود قوى سياسية أخرى بجوارها. ومن ثم فإن هذا الطغيان يعوق نمو أي قوة سياسية على مستوى المؤسسات، كما أنه ينجح على المستوى السيكولوجي في إحباط رغبة الإنسان في العمل السياسي المستقل. ويعتمد هذا النجاح في نهاية الأمر (وفيتفوجل هنا يتفق مع مونتسكيو في المبدأ الذي رأى أن الطغيان يقوم عليه) على أن الحكومة المائية تعتمد على مبدأ التخويف[1].

ومن هنا فإن «الطغيان الشرقي» - أو الاستبداد المائي كما يسميه فيتفوجل - اضطر إلى أن يحكم معتمدًا على العقاب، وهي خطة من الحكم يبررها القول بأن الأبرياء أو غير الآثمين من البشر قلة من الأفراد. وهو يضرب المثل بحكيم الصين الأكبر «كونفرشيوس» الذي كان يفضل التربية على العقاب، ومع ذلك كان يعتقد أن «إعداد الحكومة الصالحة يحتاج إلى مئات من السنين حتى يتحول الإنسان السيئ العنيف إلى شخص صالح، وحتى نستغني تمامًا عن عقوبة الإعدام»![2].

(1) K. Wittfogel: Op Cit., p. 1137

(2) Ibid., 138

ولهذا السبب فإن الحكومات المختلفة في الشرق نظرت إلى العقاب على أنه الوسيلة الجوهرية الوحيدة لنجاح الدولة في إدارة شئونها. وهكذا نجد شريعة «مانو» الهندوسية تقر العقاب وبث الرعب باعتبارهما الأساس للسلام والنظام الداخلي، فالعقاب الذي لابد أن يكون عادلًا بالطبع، يجبر الأفراد على السلوك المستقيم، ومن دونه فإن الحدود الموضوعة بين الطوائف سوف تنتهك، ويتغلب الناس بعضهم على بعض. أما عندما يطل العقاب بسحنته السوداء وعينه الحمراء، فإن الرعية تخلد إلى الهدوء والسكينة «العالم كله يحافظ على النظام عن طريق العقاب»[1]، إذ عن طريق العقاب يحمي الحاكم الضعيف من القوى، ويمنع الانتهاك الحيواني للقرابين، ويحمي الملكية الخاصة من أعدائها. ويحول دون إهانة الطبقة الدنيا للمنزلة الاجتماعية الرفيعة، فما لم ينزل الملك الطاغية العقاب على من يستحقه، بلا ملل أو ضجر، فإن «القوى سوف يشوي الضعيف، كما تشوي السمكة على سيخ من حديد. وسوف يلتهم الغراب فطائر القرابين، وسوف يلعق الكلب طعام القربان، ولن تبقى الملكية الخاصة لأحد، وسوف تغتصب الطبقات الدنيا أماكن الطبقات العليا»[2]. وهكذا فإن العقاب هو وحده الذي يحكم الكائنات المخلوقة، والعقاب هو وحده الذي يحميها جميعًا، فالعقاب يراقبهم حتى وهم نيام. «إذ الواقع أن العقاب.. هو الملك»[3].

وينتقل «فيتفوجل» إلى الحديث عن السلطة المقدسة التي أضفاها طغاة الشرق على أنفسهم ليبرروا مساءلة الناس وعقابهم، فقد زعم حكام بلاد

(1) Ibid.
(2) Ibid.
(3) Ibid., 138

ما بين النهرين أنهم أخذوا سلطتهم من إنليل Enlil العظيم، رئيس مجمع الآلهة السومري الذي قام بتنظيم الكون وإخراجه من لجة العلماء. ويرمز هذا الإله المرعب إلى سلطة القوة والقهر والإرادة المقدسة، وبالتالي فإن أي معارضة من جانب الأفراد ينبغي أن تسحق تمامًا. فلا سبيل أمام الرعية سوى الخضوع والاستسلام. وعلى الرغم من أن «إنليل» يفترض فيه أنه يستخدم قسوته وجبروته بطريقة قانونية مشروعة، فإن المرء لا يمكن أن يرتاح أبدًا لهذا الإله، لأنه دائمًا يشعرنا بالخوف من أن العقاب يترصدنا. ومن هنا يبدو أن استعداد الحاكم للتوحيد بين ذاته وبين الإله إنليل - أو الآلهة المنحدرة من صلبه - ذو مغزى عميق. ولهذا اعتاد ملوك «سومر» أن يوحدوا مباشرة بينهم وبين إنليل، لما يمثله من رعب، ولما يبثه من خوف في قلوب الناس. ولقد أخذ الطغاة البابليون هذه الفكرة نفسها وعدلوها: «فحمورابي» صور نفسه على أن الذي أعطاه اسمه هو «إنليل» ذاته، ولهذا أطلق على نفسه «ابن إنليل» وأبوه هو الإله سن Sin إله القمر، وفي الحالتين فإن طغاة ما بين النهرين يؤكدون صفتهم المرعبة[1].

كذلك كان الرعب، في رأي هذا المفكر، ملازمًا للاستبداد عند الفراعنة، وهو رعب ترمز إليه الأفعى السامة أريوس Uraeus التي ترقد ملتفة حول جبهة الملك تهدد أعداءه بالدمار. كما أن أعمال الملك المرعبة يمكن أن تقارن بالأعمال المخيفة للإلهة سخمات Sekmet إلهة الحرب الشرسة في مصر القديمة التي دمرت أعداء «رع» فسميت «عين رع» كذلك كان فن إدارة الحكم في الصين القديمة يعبر باستمرار عن حاجته للعقاب المرعب،

(1) Ibid., 139

وظل حجر الزاوية في السياسية الرسمية طوال الحكم الإمبراطوري، حتى إن ما نسميه نحن الآن «وزارة العدل» كان يسمى في التراث الصيني باسم «وزارة العقوبات»[1].

غير أن هذه العقوبات لم تكن تعني العقوبات الأدبية أو الأخلاقية التي تلجأ إلى ضمير الفرد، فلا وجود لاستقلال الفرد أو ذاتيته، إنها عقوبات جسدية تستخدم - على حد تعبير فيتفوجل - «لغة الكرباج» وتلجأ إلى الجلد، والضرب، والأصفاد والأغلال. يقول «كانت لغة الكرباج هي اللغة المستخدمة بانتظام في دولة السخرة في سومر القديمة، كما أن جميع الموظفين الرسميين في دولة الفراعنة كانوا يستخدمون العقاب البدني، وتظهرنا السجلات في مصر القديمة، على أن الموظفين الذين وكل إليهم الإشراف على المشروعات العامة كانوا يسيرون والعصا في أيديهم. وفي أماكن أخرى كانت الطريقة المؤكدة لحث الناس على العمل الجاد هي تهديدهم بالضرب!»[2] كما كانت مقاومة جباية الضرائب منذ الفراعنة تواجه بعنف وقسوة، وتخبرنا مقطوعة هجائية شهيرة من المملكة الحديثة، إن الفلاح المصري الذي يفشل في تسليم حصته من الغلال «كان يضرب، ويقيد، ويطرح به في القناة»[3].

وفي ظل هذا الرعب الشامل كان على أعضاء «المجتمع المائي» أن يشكلوا سلوكهم بحيث يتفق مع مطالب الدولة، إذا أرادوا أن يكتب لهم

(1) Ibid.
(2) Ibid., P. 143
(3) Ibid.

البقاء، فلا ينبغي لهم إثارة الوحش الذي لا قبل لهم بالسيطرة عليه. وهكذا فإن الفطرة السليمة تنصح المرء بأن تكون إجابته على مطالب السلطة المطلقة بكلمة واحدة فقط هي: الطاعة. وهكذا تصبح الطاعة هي سمة المواطن الصالح في الطغيان الشرقي، وفي جميع النظم الاستبدادية[1]. صحيح أن الحياة في أي مجتمع تتطلب قدرًا من التناسق والانسجام بين الفرد ومجتمعه، ولا تكون الطاعة مفقودة تمامًا. لكن في المجتمعات الزراعية الغربية، مثلاً، لا تكون الطاعة أبدًا هي الفضيلة الأولى للمواطن. ولقد كان المواطن الصالح في دولة المدينة الديمقراطية عند اليونان يتميز بأربع صفات رئيسية هي: الشجاعة في القتال، والتقوى، والمسئولية المدنية، والرأي المتزن. كما كان للقوة الجسدية والشجاعة فيما قبل الفترة الديمقراطية، تقدير خاص. لكن لم يحدث قط لا في العصر الهوميري، ولا في العصر الكلاسيكي، أن كانت الطاعة هي فضيلة الرجل الحر، اللهم إلا في ميدان القتال. في حين كانت الطاعة العمياء، والاستسلام الكامل، والخضوع المطلق هي واجبات العبد وقدره الأليم ومصيره البائس. لقد كان المواطن الصالح عند اليونان هو من يعمل في اتساق وانسجام مع القوانين التي شرعتها الدولة، دون أن تكون هناك سلطة مطلقة، تقيد سلوكه على نحو مطلق[2].

بل لم يكن ولاء الفارس لسيده الإقطاعي في العصور الوسطى ينتهي به إلى استسلام كامل أو خضوع مطلق. فالعقد الإقطاعي يلزمه باتباع سيده بطريقة معينة فحسب، كما كانت فضائل الفارس الجيد تنحصر في قدرته

(1) Ibid., P. 149

(2) Ibid.

على الفروسية، وبراعته في القتال، والشجاعة الفائقة إلى أقصى حد. أما الطاعة التامة أو العمياء فلم يكن لها وجود[1].

أما في حكومة الطغيان الشرقي - أو العلاقة بين المواطنين والحكام في المجتمع المائي، فإن الأمر يختلف عن ذلك أتم الاختلاف. يقول فيتفوجل «لقد ناقش ثوركيلد جاكبسن Thorkild Jacobsen موضوع المجتمع والدين في بلاد ما بين النهرين، وانتهى إلى أن الطاعة هي الفضيلة الأولى هناك: «فالحياة الصالحة هي حياة الطاعة» وعلى خلاف المقاتلين في أوروبا في العصر الوسيط الذي كثيرًا ما كانوا يقاتلون في جماعات صغيرة، دون أن يهتموا بدرجات القيادة، فإن البابليين شعروا «أن الجنود بلا ملك، أشبه بقطيع الغنم بلا راع»، و «العمال بلا مراقب كالمياه بلا مفتش ري» و «الفلاحون بلا مشرف، كحقل بلا محراث»[2]. وهكذا كان المتوقع من الرعايا تنفيذ أوامر رؤسائهم، ومن باب أولى تنفيذ أوامر الملك. فقد كان على هؤلاء جميعًا إعلان الطاعة المطلقة. «فقد اقتنع الأهالي في بلاد ما بين النهرين بأن السلطة هي دائمًا على حق»[3] ولا يزال الشرقيون جميعًا مقتنعين بذلك!.

ويمكن أن نجد هذه الأفكار نفسها في مصر الفرعونية، فلابد للسفينة من ربان، وللجماعة من قائد. ولابد لمن يريد البقاء أن يوائم نفسه مع صرح الخضوع والاستسلام. وشرائع الهندوس في الهند تأمر أتباعها بطاعة السلطة

(1) Ibid.,

(2) قارن ما سبق أن ذكرناه في بداية هذا البحث.

(3) K. Wittfogel: Op. Cit, p. 150.

الدينية والدنيوية معًا، ومن يعارض أوامر الملك يعرض نفسه لصنوف مختلفة من عقوبة الإعداد[1].

ومن الطبيعي أن يكون الهدف من التربية إعداد المواطن للخضوع التام، والطاعة العمياء، فالتلميذ الجيد هو الابن المطيع. والتربية عند كونفوشيوس تتطلب الطاعة المطلقة للوالد وللمعلم، وهو الأساس المثالي الذي تبنى عليه الطاعة المطلقة للسادة في المجتمع، وبالتالي للحكام من الطغاة.

ويجلس الفرد، في بلاد ما بين النهرين، في المركز تحيط به مجموعة من الدوائر تمثل السلطات المختلفة التي تحد من حرية أفعاله وسلوكه، وتشكل الدائرة الأقرب والأصغر السلطة في الأسرة: سلطة الأب، والأم، والأخ الأكبر، والأخت الكبرى، وليست الطاعة للعضو الأكبر في الأسرة سوى مجرد بداية فحسب، إذ تقع وراء دائرة الأسرة، دوائر أخرى تمثل سلطات أخرى كالدولة والمجتمع، وتلزم لكل منها «طاعة مطلقة»!.

كما كانت الحكمة في مصر القديمة تربط عن وعي، بين الطاعة في المنزل وطاعة الدولة، فالابن المطيع هو الذي ستكون له مكانة طيبة في قلب الدولة. وسوف يلقي حديثه قبولًا حسنًا عند من يتحدث معه. ومطلب الخضوع في الهند للسلطات الدينية والدنيوية، يعززه مطلب الخضوع للوائح الشخصية من الحياة. «وتعني الطاعة أساسًا: طاعة المعلم، والأب، والأم، والأخ الأكبر». وتصف الكونفوشية ولاء الأبناء[2]، بأنه «الإعداد الفريد

(1) Ibid.

(2) انظر فكرة الولاء البنوي في تعاليم كونفرشيوس كتاب «المعتقدات الدينية» ص 288، ترجمة د. إمام عبد الفتاح إمام، ومراجعة د.عبد الغفار مكاوي - سلسلة عالم المعرفة بالكويت - عدد 173 - مايو 1993.

للطاعـة المدنية»، «فهناك قلة ضئيلة ممن يسـلكون سـلوكًا صالحًا وطيبًا مع والديهم، و إخوتهم الأكبر سـنًا، يمكن أن تميل إلى معارضة رؤسائهم. وليس هناك أحد ممن ينفر من معارضة رؤسائه، يميل إلى التمرد عليهم»[1].

هكذا نجد أن الهدف الأسـمى للتربية في حكومات «الطغيان الشرقي» هي تعليم الفرد أن يطيع بغير سـؤال وبلا مناقشـة، كلما طلبت منه السلطة المسـتبدة أمرًا! ثم تتطور خاصيـة الطاعة هذه، التي تتميـز بها المجتمعات المائية، إلى خاصية السجود أو الركوع أمام الطاغية!، فالسجود، في الحضارات المائيـة، يحدث تقريبًـا، في كل مكان. لقد مارس الصينيون السـجود في فترة مبكـرة من حكم أسرة «تشـو Chou»[*] ثم انتشر في جميـع المراحل التالية مـن تاريخ الصين. والخبرة التي مر بها بعض المبعوثين الأوروبيين حين طلب منهم الركوع أمام إمبراطور المانشـو Manchu[**] (في منغوليا) تكشف عن أهمية هذه العادة عند الشرقيين، كما تكشف في الوقت ذاته عن الحرج الذي وقع فيه الزوار الأوروبيون في آن معًا[2].

ولقـد كان مـن المألوف في العهـود الكلاسـيكية عند هندوسـية الهند احتضـان قـدم الشـخص كمظهر مـن مظاهر الاحـترام الكبـير والتقدير العظيـم. وكان الاقـتراب من الملـك يتخذ مظهر الشـخص الذي يصلي، كما

(1) K. Wittfogel: Op. Cit. p. 152.

(*) أسرة تشو Chou حكمت الصين من (1027 ق. م حتى عام 771 ق. م) وأطلق على ملوكها اسم «الملوك الكهنة».

(**) كانت في الأصل قبائل من الرحل، ثم تعلمت الزراعة واستقرت، وتمكنت من بسط سيطرتها على أجزاء من الصين.

(2) Idid.

كان السجود يتم أمام الآلهة، والمعلم، وفي الحقبة الأخيرة من الهندوسية كانت إيماءة الخضوع الشامل تؤدي أمام الحاكم[1].

ويكشف الكثير من الوثائق عن أهمية السجود في الشرق الأدنى، فتصف سجلات مصر الفرعونية، أن البلاد كلها «كما لو كانت تنبطح على بطنها» عندما يظهر الملك. أما الرعايا المخلصون فقد كانوا يزحفون على بطونهم لكي يقبلوا (أو يتنشقوا) عطر الملك. وتدل شواهد في المملكة الحديثة على أن أصحاب المقامات الرفيعة كانوا يستخدمون إشارات أخرى إظهارًا للاحترام والتوقير. وإن كانت المصادر المعاصرة لم تقل لنا إنهم توقفوا عن السجود تمامًا، وإنما هي تشير بوضوح إلى أن الطبقات الدنيا، والرعية، قد واصلت السجود. وكان السجود في بلاد ما بين النهرين، يؤدي للإله، وللحاكم، وللشخصيات المتميزة الأخرى. كما كان يؤدي السجود أيضًا في فارس الأخمينية، ثم استمر في عصر الإمبراطورية الهلنستية، والسلوقية، والبلطمية، وأيضًا في فارس الساسانية. وأصبح معيار الاحترام في نهاية الإمبراطورية البيزنطية. ولسنا بحاجة إلى القول إنه كان يتناسب مع المناخ الاجتماعي للبيزنطيين[2].

وهكذا نجد أن السجود للطغاة، في المجتمع المائي، أصبح التعبير الصارخ للطاعة والخضوع، والاستسلام، والاحترام والتوقير جميعًا.

ومن الطبيعي أن تؤدي الخصائص السابقة بالفرد في المجمع المائي إلى العزلة أو الوحدة، وهي عزلة يخلقها الخوف والرعب الذي يعيش فيه. فالفرد

(1) Ibid, p. 155
(2) Ibid, p.155

لا يجد أمامه سوى الخضوع المطلق كرد حذر، ووحيد، على السلطة المطلقة، وذلك يؤدي إلى كارثة أخلاقية حيث تنتشر مجموعة كبيرة من الرذائل. فعندما يتم استقطاب السلطة في المجتمع المائي، فإنه تستقطب كذلك العلاقات الاجتماعية، فالرعايا الذين لا يملكون أية سيطرة على حكوماتهم، لابد أن يخافوا من الدخول معها في أي صراع حتى لا تسحقهم تمامًا. بل إن هذه القوة المرعبة لا تستطيع فقط تدمير القوى المعارضة غير الحكومية، بل في استطاعتها أيضًا أن تبتلع الأعضاء في الجماعة الحاكمة، بما في ذلك الحاكم نفسه، وتلقى أمامه بظلال كئيبة من الشك والقلق، بل ربما لا تجد شيئًا يدمر الحياة كما يفعل اللا أمان الذي يخلقه استقطاب السلطة المطلقة. ولهذا فإنك تجد شعار الحاكم هو: «لا تثق في إنسان قط!» فهذا الطاغية اللا مسئول، يحسده أقرب المقربين إليه، ولذلك تجد كثيرًا منهم يتطلع إلى السلطة و يتحرق شوقًا إلى الاستيلاء عليها ولما كان التغير الدستوري الهادئ أمرًا لا وجود له، فإن تغيير السلطة واستبدال حاكم بحاكم لا يعني سوى شيء واحد فقط هو اغتيال الحاكم الحالي، ومحوه من الوجود. ومن هنا فإن الطاغية «الحكيم» هو الذي لا يثق في أحد على الإطلاق!.

ولهذا كان من الأسباب الواضحة والمفهومة أن يحتفظ الطغاة لأنفسهم بأفكارهم الداخلية العميقة لا يفصحون عنها إلا نادرًا، وسلوكهم الذي نشاهده يؤكد هذه الحقيقة. فقد جاء في إحدى أوراق البردي المحفوظة رسالة هي عبارة عن نصيحة كتبها أحد الفراعنة لابنه يقول فيها:

«ابتعد، واعزل نفسك عن الرعايا الذين يخضعون لك، لا تقترب منهم وأنت وحيد.. ولا تشغل نفسك، ولا تملأ قلبك بأخ، ولا

تعرف صديقا.. وحتى إذا نمت عليك أن تراقب بنفسك قلوبهم، أن الإنسان ليس له أعوان في وقت الشدة»[1].

كما نجد التراث الهندي يحدد الأخطار التي تحيط بالحاكم. ويناقش الوسائل العديدة التي يمكن بوساطتها أن تنقلب عليه الحاشية، ولهذا لابد من أن يحترس في قصره بحيث تكون إقامته آمنة، وأن يتخذ الاحتياطات اللازمة حتى لا يدس له أحد السم، ولا بد أن يراقب جميع أفراد الحاشية وأن يسيطر عليهم، كما لابد للملك أن يتجسس على رئيس وزرائه، وأن يكون حذرا من أصدقائه المقربين، ومن زوجاته ومن إخوته، وبصفة خاصة من وريثه. وتقول عبارة تتردد كثيرًا عن طغاة الهنود: «الأمراء كالسرطان، لديهم ميل سيئ السمعة، لالتهام نسلهم». ولكي تمنع ذلك من الحدوث، فإن هناك قائمة تحصى الطرق التي يستطيع أن يحمي بها الحاكم نفسه من أبنائه[2].

وهكذا نجد أن الحياة الرسمية ليست آمنة:

«فالرجل الحكيم هو من يبحث أولًا، وبصفة مستمرة، عن حماية نفسه إذ إن حياة الرجل الذي يكون في خدمة الملك يمكن مقارنتها بالحياة وسط النيران، فعلى حين أن النار تحرق جزءًا من البدن، أو تحرق البدن كله، فإن لدى الملك القدرة على تدمير الأسرة كلها»[3].

وتشير النصوص الفارسية بصفة خاصة إلى الأخطار الكامنة خلف مظاهر الأمان البيروقراطية:

(1) Ibid, p. 155
(2) Ibid
(3) Ibid, p. 156

«هـل ادعى لك الملك ذات مـرة أنك آمن تمامًا وأنـت في معيته؟! إذن أبدأ منذ تلك اللحظة في الإحسـاس بعدم الأمان! فإذا ما دأب إنسان على تسمينك، فلا بد أن تتوقع أنه سرعان ما يذبحك!»[1].

غـير أن الحاجة إلى «الشـك والريبة» لا تنحصر فقـط في أولئك الذين يشـغلون مناصب رفيعة في الهرم البيروقراطي، ففـي الصين، كما هي الحال في جميـع حكومات الطغيان الشرقي، أو الحضارات المائية، نجد أن الموظفين الذيـن يشـغلون مناصب رفيعة يحسـدون أصحاب الوظائـف الدنيا، وليس أصحـاب المناصب الدنيا أقل ريبة من رؤسـائهم، إذ مـن هذا الجانب يمكن أن يـأتي زوالهم في أية لحظة![2]، وهكذا تنتشر جميـع الرذائل الأخلاقية من كـذب، وغش ورشـوة ونفاق وتملـق إلى ألوان مـن المؤامرات والدسـائس، فيحـاول كل فرد، وكل فريـق تحقيق مصالحه الذاتية وأغراضه الشـخصية بشتى السبل. ويتهم كل فريق غيره بالتآمر ليقصيه عن مكانه. وهكذا ينشر الشـعور بالعزلة والوحشـة بين الناس: فالحاكم في نظام «الطغيان الشرقي»، أو المجتمع المائي، لا يثق في أحد، والموظف يشـك في زميله، والرجل العادي يخاف الوقوع في شرك المؤامرات. وإذا كان هناك شـعور بالوحشة في البلاد الديمقراطية، فإن الأفراد الأحرار يشـعرون بها أساسًا لإحساسهم بالإهمال، لا لأن السـلطة تتهددهم في أية لحظة، أو لأنهم يشـعرون بأن الطاغية قادر باسـتمرار، كلما شـاء، أن يقضي على كرامتهم. ولهذا يلجـأون إلى الانزواء والانسـحاب السـلبي، ومما له مغـزاه أن تظهـر الرواقية قديمـاً عندما زال

(1) Ibid.
(2) Ibid.

المجتمع المتزن في اليونان الكلاسيكية، وحل محله النظام الهلنستي الذي أقامه الإسكندر الأكبر على أساس السلطة المطلقة[1].

تلك هي السمات العامة لنظرية «فيتفوجل» عن الطغيان الشرقي أو الاستبداد المائي التي ترد الطغيان إلى التحكم في مياه النهر، وما يستتبعه ذلك من أعمال جماعية تطلبت وجود السخرة، التي تطلبت بدورها بث الذعر والرعب بين الناس لإرغامهم على الطاعة، ومعاقبة العاصي منهم، وما ينتهي إليه هذا النظام من انتشار الرذائل الأخلاقية.

غير أن السؤال الملح على ذهن المرء، وهو يقرأ هذه النظرية: لماذا تكون الحكومة المركزية استبدادية بالضرورة؟! ألا يمكن أن تكون هناك حكومة مركزية ديمقراطية تتحكم في النهر، وتقوم بجميع المهام المطلوبة عن طريق التعاون لا السخرة؟، وهل صحيح أن جميع الأنهار في العالم التي تعتمد عليها زراعة الأرض في الدول الزراعية أدت إلى ظهور حكومة طغيان؟. الواقع أن فيتوفجل كان ماركسيًّا في شبابه، لكنه حاول أن يطور الفكر الماركسي الجامد، أو أنه أيد ما يقول الماركسيون، وأراد أن يثبت أن سلطة الدولة هي باستمرار سلطة طاغية على الجماهير، حتى و إن كانت الدولة اشتراكية، والنتيجة التي ينتهي إليها هي أن الاتحاد السوفييتي ما هو إلا شكل من أشكال «الطغيان الشرقي»!، لكن الاتحاد السوفييتي نفسه تفكك وتحول إلى دويلات ديمقراطية، تؤكد من جديد أن الديمقراطية لا وطن لها، وأنها يمكن أن توجد حيثما وجد الإنسان على الأرض.

(1) Ibid, p. 156

رابعا: النظرية السادومازوخية Sadomasochism

يعبر مصطلح «السادومازوخية» عن العلاقة الوثيقة بين السادية التي هي إيقاع الألم بالآخرين، والمازوخية التي هي - على العكس - تقبل إيقاع الألم على الذات والاستمتاع به.

و ينسب مصطلح السادية Ssdism إلى المركيز دي ساد Marquis de Sade (1740 - 1814)، الذي اشتهر بمؤلفاته ذات المحتوى العنيف في الممارسات الجنسية. وأهم هذه المؤلفات روايته الشهيرة (جوستين وجوليت)، المعروفة أيضًا باسم «لعنة الفضيلة، ونعمة الرذيلة». ومع أن «دي ساد» لم يمارس إلا القليل من خياله الخصب الذي كتبه في مؤلفاته، فإنه خلق لنا مصطلحًا ارتبط باسمه، وأصبح من أكثر المصطلحات تداولًا على ألسنة الكتاب في موضوعات عديدة. كما وجد طريقه إلى التعبيرات المتداولة على ألسنة الناس في وصف أولئك الذين يجدون لذة في إنزال الألم والأذى بالآخرين. و يرى بعض الباحثين أن نزعته السادية التي بدت في سلوكه، وتجلت بشكل صارم في كتاباته إنما تعود إلى كراهيته العميقة لأمه، والتي دفعت به إلى محاولة الانتقام من الأنثى بصفة عامة. ومهما تكن خلفية طفولته، فلا شك أنه كان يتمتع باضطراب وعدم اتزان دفع به في النهاية إلى دخول مستشفى الأمراض العقلية حيث أمضى بقية حياته[1].

أما مصطلح المازوخية Masochism فهو القطب المضاد للسادية في

(1) د. علي كمال «الجنس والنفس في الحياة الإنسانية» ص 229 - دار واسط للدراسات والنشر - لندن - الطبعة الأولى عام 1985.

علاقة «السادومازوخية»؛ وهي تعبر عن حالة الفرد في إقباله، وتقبله، لما يمكن أن يقع عليه من ألم أو إيذاء جسمي أو نفسي من شخص آخر واستمتاعه بهذا الألم. وينسب المصطلح إلى الكاتب الروائي النمساوي الذي ارتبطت باسمه هذه الظاهرة وهو «ليبولد زاخر مازوخ Lepold zacher Masch» (1836 - 1895)، الذي ألف الرواية المشهورة «فينوس في الفراء Venus in Furs» وهي تعبر في بعض أجزائها عن فترات وتجارب من حياة المؤلف نفسه، وخصوصًا في طفولته. والحادثة التي استرعت اهتمام المحللين النفسيين هي أن «مازوخ» كان في طفولته يعيش مع عمته التي كانت تعاشر عشيقًا لها بين الحين والآخر، وقد دفعه حب الاستطلاع ذات مرة إلى الاختفاء في دولاب للملابس ليشاهد ما يحدث بالفعل. وبينما كان «مازوخ» يرصد كل ذلك بحماس واهتمام، بدت منه حركة جلبت الاهتمام إليه، واكتشف أمره، وعاقبته عمته بضرب مؤلم. وهكذا يفسر المحللون قيام ارتباط وثيق بين الألم الذي وقع عليه، وبين لذة الإثارة الجنسية التي كان «مازوخ» يستمتع بها، وبأن هذا الارتباط قد تأصل في نفسه إلى حد جعل من الممكن قيام اعتماد متبادل بين الشعور بالألم واللذة. ويبدو أن هذه التجربة قد تكررت، وأن «المازوخي» مهيأ بطبيعته النفسية إلى مثل هذا الانحراف[1].

وعلينا أن نسوق هنا ثلاث ملاحظات مهمة:

الملاحظة الأولى: هي أنه على الرغم من أن هذين المصطلحين قد ارتبطا في البداية بالجنس، واستخدمتهما مدرسة التحليل النفسي في تفسير

(1) المرجع السابق ص 231 - 232.

الكثير من مظاهر السلوك البشري، فإنهما قد انتقلا بعد ذلك إلى علم النفس الاجتماعي، ثم إلى علم الاجتماع، وأخيرًا إلى ميدان الفلسفة السياسية، وهي التي تعنينا هنا بالدرجة الأولى.

والملاحظة الثانية: هي أن هناك ارتباطًا وثيقًا بين المصطلحين، أو بين النزعة السادية المتسلطة التي تفرض سيطرتها على شخص، أو مجموعة من الأشخاص، وبين النزعة المازوخية التي تستسلم، بل وتستعذب الألم الذي يقع عليها، مما يبرر جمعهما في مصطلح واحد هو ما نسميه بالعلاقة «السادومازوخية»، وهي العلاقة التي يكون فيها الطرف الأول قوة مسيطرة متسلطة تفرض إرادتها، في حين يكون الطرف الثاني شخصية مستسلمة خاضعة.

والملاحظة الثالثة: هي أنه إذا كان علم النفس قد نظر، في البداية، إلى هذه العلاقة على أنها تمثل انحرافًا عن الطريق السوي، فإن معظم علماء النفس يعتبرونها الآن نزعات طبيعية عند البشر. رغم أنها قد توجد بصورة منحرفة عند بعضهم. يقول إريك فروم: «إن النزعات السادومازوخية موجودة عند البشر بدرجات مختلفة في الأشخاص الأسوياء والمنحرفين على حد سواء»[1]. والعامل الخفي في هذه العلاقة هي تبعية كل طرف للآخر واعتماده عليه، وقد يبدو ذلك واضحًا في الشخص المازوخي الذي يمثل الجانب الضعيف الخانع المستسلم، وقد نتوقع أن تكون الشخصية السادية هي، على العكس، قوية ومستقلة ويصعب اعتمادها على الشخصية الضعيفة أو تمسكها بها. ومع ذلك فالتحليل الدقيق يكشف عن وجود هذه التبعية بين الطرفين، فالشخص السادي يحتاج إلى الشخص الذي يتحكم فيه ويسيطر عليه:

(1) Erich Fromm: Wscape from feeedom, p.163

«إنه يحتاج إليه بشدة ما دام شعوره بالقوة كامنا في واقعة أنه سيد لشخص ما، وهو قد لا يعي هذه التبعية على الإطلاق، ومن هنا فقد يعامل الرجل زوجته على نحو سادي تمامًا، وقد يكرر على مسامعها أنها تستطيع أن تترك البيت في أي وقت، وأنه سيكون سعيدا للغاية لو أنها فعلت ذلك. وكثيرًا ما يعتصرها الألم حتى إنها لا تجرؤ على مغادرة المنزل. وهكذا يستمر كل منهما في الاعتقاد بأن موقفه هو الموقف الصحيح. غير أن الزوجة لو انتابتها شجاعة مفاجئة جعلتها تجرؤ على القول بأنها ستتركه، فقد يحدث شيء غير متوقع تمامًا بالنسبة لهما معًا: إذ يصبح الزوج بائسًا منهارًا يتوسل إلى زوجته ألا تتركه، وسوف يعلن كم هو يحبها وما إلى ذلك. ولما كانت الزوجة تخشى، عادة، أن تفرض حقوقها أو مركزها على أي نحو، فإنها تميل إلى تصديقه وتغير قرارها وتبقى. وعنده هذه النقطة تبدأ اللعبة من جديد، فالزوج يستأنف سلوكه القديم، والزوجة تجد الأمر يزداد صعوبة في البقاء معه، فتنفجر مرة أخرى، وينهار الزوج من جديد، فتبقى معه، وهكذا يتكرر الموقف مرات عديدة»[1].

ويعتقد «فروم» أن هذه العلاقة الزوجية تتكرر آلاف المرات، كما تتكرر بالطريقة نفسها في علاقات شخصية أخرى، والزوج لا يكذب عندما يعلن حبه لزوجته، أو أنه لا يستطيع الحياة من دونها. إذ بغض النظر عن الحب، فهو فعلاً لا يستطيع أن يحيا من دونها، أو بتعبير أدق، من دون

(1) Ibid.

شـخص آخر يشـعر أنه أداة عاجـزة في يده. وفي حالات أخـرى كثيرة نجد الشخص السادي يحب بوضوح تام أولئك الذين يشعر معهم بقوته أو يمارس عليهم سيطرته. سواء أكانوا زوجته أم طفله أم مساعده أم شحاذًا في الطريق، فهناك شعور «بالحب»، بل حتى شعور بالعرفان والامتنان نحو الموضوعات التي يسـيطر عليها. وقد يعتقد أنه يرغب في السيطرة على حياتهم لأنه يحبهم كثيرًا، وهو بالفعل يحبهم لأنه يسيطر عليهم. وهو يرشوهم بالأمور المادية، والمديح أو بتأكيد الحب، أو التباهي بالذكاء والبراعة أو إثارة الاهتمام. وقد يعطيهـم كل شيء - كل شيء سـوى شيء واحد: الحـق في أن يكونوا أحرارًا ومستقلين[1].

قد لا تبدو الشـخصية السادية محيرة مثل الشـخصية المازوخية، فإيذاء الآخرين، ومحاولة السـيطرة عليهم قد لا يكون شـيئًا «طيبًا» في ذاته، لكنه يبـدو أمرًا طبيعيًا تمامًـا، وقديمًا ذهب «توماس هوبـز» إلى «أن رؤية الشر الـذي يلحـق بالآخريـن تـسر الناظرين، لا لأنهـا شر، بل لأنهـا شر يلحق بالآخرين»[2]. وهو يقول أيضًا: «إني لأعتقد أن هناك ميلاً عامًا، لدى البشر جميعًـا، وهو تعبير عن الرغبة الدائمة التي لا تسـتقر نحو الحصول على القوة بعـد القوة، وهي رغبـة لا تهدأ أو لا تتوقف إلا بالمـوت..»[3] ومن هوبز إلى هتلر الذي شرح الرغبة في السـيطرة على أنها النتيجة المنطقية لقانون صراع

(1) An Avon Library Book, N.Y., 1967

(2) E. Fromm: Ibid., p.168

(3) T.Hobbes: De Homine, p.51

وقارن كتابنا «توماس هوبز، فيلسوف العقلانية» ص 259 - من طبعة دار التنوير - بيروت عام 1985.

الكائنـات الحية من أجل البقاء، وبقـاء الأصلح. أصبحت الرغبة العارمة في القوة والسـيطرة تفسر على أنها جزء من الطبيعـة البشرية، ولا تحتاج إلى أي تفسير آخر غير ما نشاهده.

أما الشـخصية المازوخية التي يميل فيها المـرء إلى تقبل الألم، فإنها تبدو لغـزًا محـيرًا. إذ كيف يمكن للمرء أن يفهم أن النـاس لا يكتفون بالتقليل من أنفسـهم أو إضعافها أو إيذائها، و إنما يسـتمتعون بذلـك أيضًا؟. ألا يتناقض ذلـك مع تصورنا لطبيعة النفـس البشرية التي تتجه إلى اللذة والمحافظة على الـذات؟ هذا كله صحيح، غير أن النفس البشرية يمكن أن تميل كذلك، فيما يبـدو، إلى البحث عن المعاناة، والألم، والضعـف، والعذاب، بل إلى البحث عـن البؤس واليأس والشـقاء: «وكل المطلوب في هـذه الحالة أن يكون المرء ضعيفًـا «أخلاقيًّا»، وذلـك بأن يعامل معاملة الطفـل الصغير، أو أن يخاطب عـلى هذا النحو، وأن يوبخ بعنـف، أو أن يذل بطرق مختلفة، في حين أنه يتم إشباع النزعة السادية بالوسائل المقابلة أعني بإيذاء الآخرين بدنيا، وتوثيقهم بالحبال والأصفاد، أو بإذلالهم بالأفعال أو الأقوال»[1].

ومـن هنا فقد ذهب بعض علماء النفس، وكذلك بعض علماء الاجتماع، إلى القول إنه إذا كان هناك أناس يسعون إلى الخضوع والاستسلام، والمعاناة، فلابـد أن تكـون هناك «غريـزة» تسـتهدف تحقيق هذا الهـدف على وجه التحديد ثم جاء «فرويد» وألقى مزيدًا من الضوء، والتفسـير النظري، على هذا الميل الذي اعتقد أنه نتيجة لما أسماه «بغريزة الموت». غير أن الفرد أدلر

(1) T.Hobbes: Leviathan, p.173 - fontana Edition وانظر أيضًا كتابنا السالف الذكر ص 308.

A. Adler (1870 - 1937) هـو الذي وضع هذه الميول في قلب مذهبه لا على أنها «سادو - مازوخية»، بل على أنها «الشعور بالدونية» من ناحية، و «الرغبة في القوة أو السيطرة» من ناحية أخرى، وهكذا أخذ التحليل النفسي للعلاقة السادومازوخية، أبعادًا اجتماعية أكثر عمقًا على يد «فلهلم رايخ wilhelem Reich» (1900 - 1957)، و « كارن هورني karen Horney» (1885 - 1952) و إريك فروم Erich fromm (1900 - 1980)، وكانت أهم هذه الدراسات جميعًا تلك التي قام بها هذا الأخير، والتي عرضها في كتابه الشهير «فرار من الحرية Escape from freedom»، حيث قام بتحليل الشخصية المازوخية التي ترتكز أساسًا على «الخوف» وتمتلئ رعبًا من الوحدة واللا جدوى «والفرد الخائف أو المذعور يبحث عن شخص ما، أو شيء ما يرب به ذاته. فهو لم يعد يطيق أن يكون ذاتًا فردية فيحاول، وهو في حالة هياج شديد، أن يتخلص منها، وأن يشعر بالأمان، من جديد، بالتخلص من هذا العبء - أعني من الذات»[1]. والمازوخية هي إحدى الطرق لتحقيق هذا الهدف، «فالأشكال المختلفة التي تتشكل فيها لا تستهدف إلا شيئًا واحدًا هو أن يتخلص الفرد من ذاته أو ضياع هذه الذات، وبعبارة أخرى: أن يتخلص من عبء الحرية. وهذا الهدف واضح في تلك النزعات المازوخية التي يسعى فيها الفرد للخضوع لشخص ما، أو قوة أو سلطة يشعر أنها تغمره بقوتها. (ومسألة القوة الفائقة لشخص آخر، هي باستمرار مسألة نسبية، فقد تعتمد على القوة الفعلية لهذا الشخص الآخر، أو على اقتناع المرء بعجزه الكامل وتفاهته التامة) والمهم أن الشخصية المازوخية تشعر بضألة ذاتها و يزداد إحساسها بالتفاهة، ربما لأن الشخص يجعل الخوف يتفاقم و يزداد سوءًا في

(1) E. Fromm: OP.Cit, p. 189

محاولة كي يشفى منه، فيقع في صراع وعذاب بين أن يكون مستقلاً وقويًّا وبين شعوره بالعجز والتفاهة، فإذا استطاع أن يصل إلى تحقير ذاته الفردية بحيث تتحول إلى «لا شيء»، استطاع، في الوقت ذاته، أن ينقذ نفسه من هذا الصراع، ويكون الشعور بالضآلة والعجز هو طريق إلى الخلاص. فإذا وجدت الشخصية المازوخية نماذج حضارية أو ظروفًا اجتماعية مناسبة كالخضوع «لزعيم» أو قائد - كما هي الحال في نظم الطغيان - يمثل القوة التي تبتلعه، فإنه يشعر بالأمان، لا سيما إذا وجد نفسه متحدًا مع ملايين غيره من الذين يشاركونه هذه المشاعر نفسها، ذلك لأن الشعور بالعجز والتفاهة، واللا جدوى هي عناصر أساسية في الشخصية المازوخية، وفي سبيل البحث عن معنى، والتغلب على الشعور بالدونية تحاول هذه الشخصية أن تصبح جزءًا من كل أكبر وأعظم وأشد قوة خارج ذاتها تنغمس فيه، وتشارك فيه. وقد تكون هذه القوة الأكبر هي الزعيم القائد، أو قد تكون إلهًا، أو مؤسسة أو أمة.. إلخ[1].

وعندما يصبح جزءًا من هذه القوة أو من هذا الكل، يشعر هو نفسه بأنه أصبح شخصية قوية، وخالدة، وعظيمة، وصامدة لا تهتز، ومن ثم يتخلى عن ذاته، وعن قوته الخاصة، وعن كبريائه، وعن حريته، ويحظى بكبرياء جديدة، وأمان جديد من مشاركته في هذه القوة التي ينغمس فيها، والتي تنقذه من تحمل المسئولية واتخاذ أي قرار في شأن حياته ومعناها، أو تحديد مصيره. كل ما يعن له من أسئلة يجد له إجابة عن طريق علاقته بالقوة التي ارتبط بها: فسيده هو الذي يحل كل مشكلة، ويجيب عن أي سؤال.

(1) E. Fromm: Ibid., p. 173

وهكـذا يتحدد معنى حياته، وهويته، وذاته عـن طريق الكل الأكبر الذي يغمره ويضيع بداخله[1].

تلك كانت، بإيجاز شديد الخصائص العامة للشخصية المازوخية الخاضعة المستسـلمة، التي لا تجد لنفسـها قيمة ولا لحياتها معنى إلا من خلال شخصية أقوى وطاغية تحيط بها وتشـعرها بالأمان وتقوم نيابة عنها بالمسـئولية.. فما خصائص هذه الشخصية الأقوى، الشخصية السادية المسيطرة؟.

«جميع الأشـكال السـادية التي يمكن أن نلاحظها ترتد، في نهاية الأمر، إلى دافع أسـاسي واحد هو السيطرة الكاملة على الشخص الآخر، بأن تجعله موضوعًا عاجزًا تحت إرادتها، وتصبح هي الحاكم المطلق عليه، بل إن تصبح إلهه، وأن تتصرف فيه كما تشاء، فتذله، وتستبعده، ويكون هدفها الأساسي أن تجعله يعاني فلا توجد سـيطرة على شـخص آخر أقـوى من بث الألم فيه لإرغامه على الإحساس بالمعاناة، دون أن يكون قادرًا على الدفاع عن نفسه. إن متعة السـيطرة التامة على شـخص آخر (أو أيـة موضوعات حية أخرى) هي ماهية الدافع السادي»[2].

وهـذا الميل للـذات البشرية لأن تكون سـيدًا مطلقًا على شـخص آخر هـو الضد المبـاشر للميل المازوخي، وقد يبدو محـيرًا أن يرتبط هذان الميلان المتعارضـان ارتباطًا وثيقًـا: فالرغبة في الخضوع والتبعيـة والمعاناة والعذاب هـي عكس الرغبة في السـيطرة، والتسـلط، وجعل الآخريـن يعانون. غير

(1) ولهذا يعتقد أريك فروم» أن تعريف شلير ماخر للتجربة الدينية بأنها تبعية مطلقة هي نفسها تعريف التجربة المازوخية - انظر كتابه السابق ص 193.

(2) E. Fromm: Ibid., p. 177 - 8.

أن الحاجة الأساسية الكامنة في الميلين هي في الواقع حاجة واحدة تنبع من العجز عن تحمل العزلة والوحدة وضعف الذات. ويقترح إريك فروم تسمية هذه الحاجة المشتركة بين الميلين باسم «التكافل» وهو مصطلح يعنى اشتراك فردين مختلفين في معيشة واحدة لقائدة كل منهما ويقول موضحًا هذا المصلح: «إن التكافل بالمعنى السيكولوجي الذي نقصده هو اتحاد ذات الفرد مع ذات أخرى (أو أية قوة أخرى تقع خارج الذات) بطريقة تجعل كلًا منهما يفقد تكامل ذاته (أو استقلالها) ويعتمد على الآخر اعتماداً تمامًا. وهكذا يحتج الشخص السادي إلى موضوعه، بقدر ما يحتاج إليه الشخص المازوخي تمامًا»[1] والفارق بينهما هو أن أحدهما يبحث عن أمان في شخص يبتلعه، والآخر يسعى إليه عن طريق ابتلاع شخص آخر، لكن في الحالتين يضيع استقلال الذات، في إحداهما تذيب نفسها في قوة خارجية، وفي الحالة الأخرى توسع من ذاتها بحيث تجعل الآخر جزءًا منها، ومن ثم تحصل على القوة التي كانت تنقصها كذات مستقلة، فالعجز عن تحمل وحدة الذات هو باستمرار الدافع للدخول في علاقة تكافلية مع شخص آخر، وهكذا يتضح السبب في امتزاج الميول السادية والمازوخية بعضها مع البعض الآخر بصفة دائمة، ورغم أنهما على السطح الظاهري يبدوان متناقضين، فإنهما من حيث الجوهر يضربان بجذورهما في حاجة أساسية واحدة[2].

أما في ميدان العلاقات السياسية، فإننا نجد الشخصية السادية تتحول إلى شخصية استبدادية، هي شخصية الطاغية المتسلط، أو القوة الآمرة النشطة التي لا تعترف بالمساواة بين الناس. لأنها تتعارض مع الفلسفة التي تقوم

(1) Ibid., p. 179.

(2) 180 Ibid., p.

عليها، صحيح أنها تستخدم «كلمة» المساواة، لكنها لا تستخدمها بمعناها الحقيقي، بل وفقاً للأعراف والعادات، أو أنها تخدم مصالح معينة مؤقتة. إن العالم، عند مثل هذه الشخصية الطاغية، يتألف من نوعين من البشر: الفئة الأولى هم الأقوياء المتميزون، والثانية هم الضعاف الذين لا حول لهم ولا قوة، أو هو يتألف من الأعلى والأدنى. والشخصية الأعلى المتميزة هي شخصية «القائد» أو «الزعيم»، «مبعوث العناية الإلهية»[1]، الذي لابد أن تخضع له الشخصيات الأدنى - المازوخية - السلبية العاجزة: «فليس هناك شيء يفعلونه، أو يشعرون به، أو يفكرون فيه لا يرتبط على نحو ما بهذه الشخصية القوية، إنهم يتوقعون الحماية منه هو، ويريدون أن يكونوا تحت رعايته «هو»، ويجعلونه «هو» مسئولاً كذلك عن نتائج أفعالهم»[2]. وهكذا يتحول هذا القائد الملهم إلى «ساحر» يعينهم على الحياة، ويحقق لهم مطالبهم في الحماية والأمن، والنمو والتطور، ولهذا تراهم يحتجون إذا تركهم وذهب، أو هدد أن يتركهم، إنهم يشعرون «بالوحدة» من دونه، ويعجزون عن الفعل، ولا يستطيعون اتخاذ أي قرار! إنها شخصيات هزيلة تريد باستمرار أن تكون تابعة منقادة، معفاة من المسئولية، وذلك هو الفرار من الحرية!

وأقوى مثال للعلاقة «السادومازوخية» بين الطاغية وشعبه إنما يوجد في

(1) مما يدعو إلى السخرية أن يدعى هتلر هو الآخر أنه «مبعوث العناية الإلهية»، أو أي معارضة لفكرته عن الأجناس البشرية هي «خطأ يرتكب في حق العناية الإلهية الأزلية»، أو ضد إرادة الخالق الأزلي. وأن الذي أمر برسالة ألمانيا هو «خالق الكون» والسماء - على حد تعبيره - لا يمكن رشوتها!! انظر كتاب أريك فروم السالف الذكر ص 260 - 261، ويبدو أن جميع الطغاة لابد لهم من التمسح في الدين ما داموا يخلعون على أنفسهم بعض الصفات الإلهية!.

(2) E. Fromm: Ibid., p. 195 - 6.

ألمانيا النازية، وإن كان ينطبق على كل الطغاة في جميع مراحل التاريخ، فقد كان «هتلر» (1889 - 1945) شخصية سادية متسلطة - على نحو ما كان موسوليني في إيطاليا (1883 - 1945) - تهدف إلى السيطرة التي لا حد لها على الآخرين، ابتداءً من المحيطين به، وامتدادًا إلى الشعب الألماني، ثم إلى العالم بأسره وفي استطاعتنا أن نجد تعبيرات منوعة عن الرغبة السادية العارمة في الحصول على القوة والسيطرة في كتاب هتلر المعروف «كفاحي Mein Kampf» الذي يعرض بالتفصيل للعلاقة بين «الزعيم الملهم» الذي يفكر للآخرين، ويخطط ويوجه، وبين جميع أفراد المجتمع المستسلمين الخاضعين، ثم العلاقة بينهما، وهي علاقة يسودها ازدواج التناقض Ambivallence، فهو يحب الجماهير الألمانية ويحتقرها في وقت واحد، فالشخصية السادية لا تستطيع الحياة من دون الموضوع الذي تمارس عليه سطوتها، وسيطرتها، لكنها في الوقت نفسه لا تحترمه. ولهذا فإننا نجد هتلر يتحدث عن رضا الجماهير بالخضوع لسيطرته يقول:

«ما تريده هذه الجماهير هو انتصار الأقوى، وسحق الأضعف، واستسلامه بغير شروط».. ويقول أيضًا «إن الجماهير كالمرأة.. تريد أن تخضع لرجل قوى لا أن يسيطر عليها رجل ضعيف، ولهذا فإنها تحب الحاكم القوي، لا الحاكم المتضرع المتوسل، وهي في أعماقها تكون أكثر اقتناعًا بالنظرية التي لا تتسامح مع الخصوم، لا النظرية التي تمنحها حرية ليبرالية، أنها تشعر بالضياع في تعاملها مع هذه الحرية، بل قد تشعر بسهولة بأنها وحيدة مهجورة»[1].

(1) جميع النصوص مأخوذة من كتاب «إريك فروم» السالف الذكر ص 247.

ويعتقد هتلر أن «الزعيم» قادر على الاستحواذ على إرادة الجماهير، بل تحطيم هذه الإرادة، إذا أصاخت السمع بعمق لقوة أعلى تتحدث إليها، وتلك في رأيه هي ماهية الدعاية، لكن الزعيم العبقري عليه أن يختار أفضل الأوضاع التي يمكن فيها لهذه الجماهير أن تفقد إرادتها وتذوب شخصيتها أمامه، وهو لا يتردد في الاعتراف بأنه عندما تكون الجماهير منهكة بدنيا فذلك هو الوضع الأمثل للإيحاء إليهم. ومن هنا فهو يحصي ساعات النهار أو الليل التي تكون مناسبة أكثر لعقد الاجتماعات السياسية للجماهير، ويرى أن ساعات المساء أفضل، يقول:

«يبدو أن إرادة الناس تكون في الصباح، وطوال اليوم، قوية قادرة على التمرد على من يحاول إرغامها لقبول إرادة شخص آخر، أو رأي مختلف. أما في المساء، فإنهم يستسلمون بسهولة شديدة لقوة مسيطرة ذات إرادة أقوى، وكل اجتماع من هذه الاجتماعات يمثل مباراة في المصارعة بين قوتين متعارضتين، والخطيب الماهر البارع الذي يتصف بطبيعة الرسل المسيطرة ينجح الآن بسهولة في أن يضم إلى صفوف الإرادة الشعبية أولئك الذين خبروا بأنفسهم ضعف قوتهم على المقاومة بطريقة طبيعية، أكثر مما يضم أولئك الذين يتلقون الأوامر من نشاط عقولهم وقوة إرادتهم..»[1].

وهكذا كان «هتلر» على وعي كامل بالظروف التي تخلق الرغبة العارمة في الخضوع والاستسلام، ولقد وصف هو نفسه، وصفًا رائعًا، موقف الفرد أثناء الاجتماع الجماهيري:

(1) المرجع السابق ص 247 - 248.

«الاجتماع الجماهيري ضروري، لا لسبب إلا لأن الذي يعتنق حركة جديدة يشعر أنه وحيد، ويغمره الخوف بسهولة من هذه الوحدة. وهو يتلقى في هذا الاجتماع للمرة الأولى صورة مجتمع أعظم، وهي صورة تجعل معظم الناس أكثر شجاعة وأشد قوة.. فإذا ما خطا الفرد لأول مرة خارج «ورشته الصغيرة» أو خارج مشروع كبير يشعر فيه بالضآلة البالغة - إلى الاجتماع الجماهيري، فإنه يجد نفسه محاطا بآلاف مؤلفة من البشر يؤمنون بما يؤمن به.. فإنه هو نفسه يستسلم للتأثير السحري لما نسميه بالإيحاء للجماهير»[1].

ويصف جوبلز J. Goebels (1897 - 1945) - الزعيم النازي المعروف ووزير الدعاية في الحكومة النازية ابتداءً من عام 1933 - الجماهير بهذه الخصائص نفسها: «فالجماهير لا تريد شيئًا على الإطلاق سوى أن تحكم بطريقة لائقة»، وعنده أن الجماهير بين يدي الزعيم القائد أشبه بقطعة حجر بين أصابع المثال، وليس ثمة مشكلة بين القائد وجماهيره إلا بقدر ما تكون هناك مشكلة الفنان الرسام والألوان التي يرسم بها![2].

أما علاقة «السادومازوخية» المتضايفة، والتي يعتمد فيها كل طرف على الآخر، فإن جويلز يكشف لنا عن مدى ضيق القائد عندما يبتعد عن الجماهير «إن المرء لينتابه أحيانًا يأس عميق، ولا يستطيع أن يتغلب عليه، اللهم إلا إذا واجه الجماهير مجددًا، فالشعب ينبوع قوتنا..»[3].

(1) إريك فروم. المرجع السابق ص 248.
(2) المرجع نفسه ص 248 - 249.
(3) المرجع نفسه ص 249

وهكذا يكشف «جوبلز»، بوضوح، عن اعتماد الشخصية السادية، شخصية القائد المستبد المتسلط، على الجماهير التي يستمد منها - أو قل من ضعفها - قوته، حتى إنه ليشعر باليأس والقنوط، بل بالضعف والفراغ إذا لم يجدها أمامه!. أما الجماهير نفسها فلابد من ترويضها حتى ننمي لديها الرغبة في الخضوع والاستسلام لقوة أعلى، وسلطة أعظم، و إن كان ذلك لا يعطيها شيئًا من القيمة الذاتية، إن قيمتها تكمن فحسب في أنها موضوع يخضع للشخصية السادية لتمارس عليه تسلطها: «فالفرد ليس شيئًا، ولا قيمة له ولا اعتبار وعليه أن يتقبل هذه التفاهة الشخصية، وأن يذيب نفسه في قوة أعلى، وأن يشعر بالفخر لأنه يشارك في هذه القوة»[1] ويقول هتلر موضحًا هذه الفكرة نفسها وهو يعرف المثالية

«المثالية هي وحدها التي تؤدي بالناس إلى الاعتراف طواعية بامتياز القوة والسلطة، وهكذا يصبحون ذرة من الغبار في ذلك النظام الذي يشكل الكون بأسره..»[2].

والرجل الاشتراكي، فيما يقول جوبلز، هو الذي يخضع الأنا للأنت، والاشتراكية هي التضحية بالفرد في سبيل الكل[3]. والتضحية بالفرد وجعله ذرة غبار، تعني إنكار حقه، في رأي هتلر، وفي أن يكون له رأي خاص به أو مصالح شخصية، أو أن يبحث عن سعاته الخاصة. فهذه الأفكار هي جوهر التنظيم السياسي للعلاقة السادمازوخية بين القائد والشعب، إذ لابد من

(1) إريك فروم. المرجع السابق ص258..
(2) اقتبسه إريك فروم في الصفحة نفسها
(3) اقتبسه إريك فروم في الصفحة ذاتها.

التنازل عن الذات، وعن الأنانية، والمصالح الخاصة، والسعادة الشخصية، فليسقط ذلك كله وليذهب إلى الجحيم فيما يرى هتلر!ولا بد من تربية الطفل بحيث نغرس فيه هذه الأفكار:

فهدف التربية ألا يؤكد الفرد ذاته، وأن الطفل في المدرسة ينبغي أن يتعلم الصمت. أن يكون صامتًا،وليس فحسب عندما يوجه إليه اللوم، بل عليه أن يتعلم أيضًا، إذا دعت الضرورة، أن يتحمل الظلم في صمت»[1].

و إذا كانت التربية النازية تستهدف هنا خلق شخصيات مازوخية ضعيفة مستسلمة، فإنها لا تنسي الجانب الآخر، أعني شخصيات سادية تواصل ما يقوم به «الصفوة» من السيطرة على الآخرين.يقول هتلر أيضًا:

«إن تطور التلميذ وتربيته بأسرها، لابد أن يتجه إلى أن نغرس فيه الاقتناع بأنه متفوق على غيره تفوقًا مطلقًا.. كما ينبغي على الطفل أن يتعلم من ناحية أخرى كيف يعاني من الظلم دون أن يتمرد».

وتلك هي الخاصية التي تتميز بها العلاقة السادومازوخية: علاقة ازدواج التناقض، القوة والضعف، السيطرة والاستسلام، الحب والكراهية، الامتنان والاحتقار، الرغبة العارمة في السيطرة، والرغبة العارمة في الخضوع والاستسلام في آن معًا.وهي العلاقة التي تربط بين قادة النازية والجماهير، فالرغبة العارمة في القوة والسيطرة على الجماهير هي صفات «القادة» والزعماء والصفوة، تقابلها الرغبة العارمة في الخضوع والاستسلام من جانب الجماهير[2].

(1) المرجع السابق ص 258.
(2) المرجع السابق ص 249.

والحق أن هؤلاء القادة لم يخفوا قط هذه الرغبة في السيطرة، بل كانوا يتحدثون عنها في صراحة مذهلة، و إن كانوا يضعونها، في بعض الأحيان، في صورة أقل عدوانية، عندما يتحدثون عن رغبة الجماهير في أن تحكم، وأن يكون لها قائد. و«القادة» و«الزعماء» هم وحدهم الذين يحق لهم الاستمتاع بالسلطة، والسيطرة والقوة (أو الجانب السادي في هذه العلاقة) أما الجماهير فإن عليها أن تقنع بالخضوع والاستسلام، ولكنها إن أرادت ممارسة هذا «الجانب السادي» فلديها الأقليات العرقية، والأقليات السياسية، داخل ألمانيا وخارجها ذلك أن الأمم الأخرى،توصف عند النازي، بأنها ضعيفة عاجزة عديمة الجدوى، وفي حالة انهيار، ومن ثم فهي موضوعات يمكن أن تتغذى عليها سادية الجماهير: «فعلى حين أن هتلر وبطانته من البيروقراطيين قد استمتعوا بالقوة والسيطرة على الجماهير الألمانية، فإن هذه الجماهير نفسها قد تعلمت أن تستمتع بالقوة والسيطرة على الأمم الأخرى، وأن تندفع بانفعال طاغ للسيطرة على العالم[1] ولا يتورع هتلر عن أن يعلن رغبته، أو رغبة حزبه، في السيطرة على العالم باعتبار ذلك هدفه الرئيسي،يقول ساخرًا من نزعة السلام:«الواقع أن فكرة السلام البشري، ربما كانت فكرة طيبة، كلما كان الإنسان ذا مستوي أعلى، وبعد أن يكون قد قهر العالم بالفعل، وأخضعه لسيطرته، لدرجة تجعله السيد الوحيد على هذه الأرض[2]. و يقول مجددًا «في هذه الحقيقة المسمومة بالعنصر العرقي، فإن الدولة تنذر نفسها للمحافظة على أفضل العناصر العرقية ودعمها،لابد أن تكون يومًا

(1) المرجع السابق ص 250.
(2) المرجع السابق في الصفحة نفسها.

ما سيدة العالم»[1] وهكذا يفسر نزعته للسيطرة على الشعوب الأخرى على أنها لمصلحة هذه الشعوب، بل لمصلحة الحضارة والثقافة البشرية بأسرها، فالرغبة في السيطرة تضرب بجذورها في القوانين الأزلية للطبيعة.وكل ما فعله «القائد» هو أنه تعرف فحسب على هذه القوانين واتبعتها، فهو نفسه تسيره قوة أعلى يسير تحت إمرتها هي الله أو القدر أو التاريخ أو الطبيعة، وليست محاولته للسيطرة على العالم إلا دفاعًا ضد محاولات الآخرين للسيطرة عليه، وعلى الشعب الألماني إنه في الحقيقة لا يريد إلا السلام والحرية[2]، لكنه لا يريد سلام النائحات الباكيات الممسكات بسعف النخيل، بل السلام الذي يقوم على السيف المنتصر لشعب من السادة يضع العالم في خدمة ثقافة أرقي. وهكذا امتد نطاق الرغبة في السيطرة، من السيطرة على الشعب الألماني، ليشمل السيطرة على كل البشر! فسيطرة الطاغية هي سيطرة مطلقة لا يحدها حد، ورغبته في السلطة رغبة نهمة لا ترتوي أبدًا.

تلك كانت مجموعة متنوعة من النظريات التي تفسر ظاهرة الطغيان بصفة عامة، والطغيان الشرقي بصفة خاصة: بعضها من منظور فلسفي - كما هي الحال في نظريتي أرسطو وهيجل وغيرهما، ومنظور اقتصادي كما فعلت الماركسية فيما أسمته «بالنمط الآسيوي للإنتاج»، وهي النظرية التي طورها كارل فيتفوجل على وجه الخصوص. وأخيرًا كانت نظرية التحليل النفسي التي ردت الطغيان، لاسيما عند إريك فروم إلى العلاقة «السادومازوخية»، وهو إن كان قد ركز على طغيان النازية، فإن ذلك لا

(1) المرجع نفسه ص251.
(2) المرجع السابق في الصفحة نفسها.

يعـني أنه لا يمكن تطبيقه على الطغيان الشرقي، فالفكرة واحدة في طغيان أي شخصية استبدادية متسلطة تروض الجماهير الخانعة العاجزة على الاستسلام وتقوم بالتفكير والتخطيط نيابة عنها، بحيث تصبح هذه الجماهير مجرد أداة طيعة في يد «القائد الملهم»، و «الزعيم الأوحد»!.

وقد يجوز لنا أن نستبعد نظرية أرسطو التي تقول إن الشرقيين ولدوا عبيدًا، فهم بطبيعتهم يتحملون الطغيان بغير شـكوى أو تذمـر.. إلخ. فليس من الناس من يولد عبدًا، وليسـت هناك شعوب تعشـق الحرية، وشعوب أخرى تسعى إلى العبوديـة. لكن لابد لنـا أن نقول من ناحية أخرى إن الشرقيين ألفوا الطغيان من طول معاشرتهم له، حتى أصبح لديهم «الاستعداد» - وهو طبعًا استعداد مكتسب - لقبـول هذا اللون من الحكم على أنه أمر طبيعي!، أو أنه قدر مفروض عليهم - لا يستطيعون التخلص منه، وهو وهم خلقة سلوك الطغاة طوال التاريخ!.

أمـا النظرية الثانيـة - نظرية فيتفوجل - فقد تكـون هناك اعتراضات كثـيرة عليهـا، لكنها في الواقع - وهذا هو الجانب المهـم - تبرز دور العوامل الاقتصادية في نشأة الطغيان، و إن كان ذلك لا يمنع بالطبع من تضافر العوامل السـيكولوجية معها، بحيث تتحول العلاقة بين الحاكم والمحكوم إلى علاقة «سادومازوخية» كما أشار إريك فروم الذي لم يغفل هو نفسه أثر العوامل الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية التي أدت إلى ظهور النازية في ألمانيا.

خامسا: نتائج

لعلنا في النهاية نقول كلمة موجزة عن الآثار السيئة التي يخلفها الطاغية في شعبه، ثم كيف يمكن أن نتخلص من حكم الطاغية.

1- أما كيف يمكن أن نتخلص من حكم الطاغية، فلا سبيل أمامنا سوى حل واحد هو أن نفعل ما فعل الغرب، فنفر منه إلى الحكم الديمقراطية ونتمسك به ونحرص عليه، وعلينا أن نعي درس «الاتحاد السوفييتي» المنحل الذي لم يجد أمامه، بعد أكثر من سبعين عامًا من حكم الطغاة، سوى أن يلجأ إلى الديمقراطية، ويمارسها فعلًا لا اسمًا.

2- لابد أن نكون على يقين من أن الديمقراطية ممارسة، وأنها تجربة إنسانية تصحح نفسها بنفسها - وبالتالي لا بد أن نتوقع ظهور كثير من الأخطاء في بداية المسيرة، لكن ذلك لا يصح أن يقلقنا وليكن شعارنا: إن أفضل علاج لأخطاء الديمقراطية هو المزيد من الديمقراطية!

3- ما يقال أحيانًا من أن الشعوب المتخلفة لا تستطيع أن تحكم نفسها بنفسها حكمًا ديمقراطيًا صحيحًا، كما فعل «مل»، أو أن الديمقراطية يستحيل تطبيقها في شعب أمي كما قال «رسل»، ذلك كله مردود عليه بسؤال واحد: وما البديل؟ والجواب هو: البديل هو حكم الطاغية أو المستبد أو الديكتاتور أو ما شئت من أسماء. وإذا كانت الديمقراطية ممارسة، فإننا سوف نبدأ بعد أن يحكمنا الطاغية عشرات السنين، من البداية، من الصفر! والديمقراطية الناقصة، أو العرجاء، خير ألف مرة من حكم الطغيان، ولقد جربنا نحن في مصر هذين النظامين وكانت الهوة بينهما شاسعة.

4- ما يقوله مونتسكيو من «أن الحكومة المعتدلة هي أصلح ما يكون للعالم المسيحي، والحكومة المستبدة هي أصلح ما يكون للعالم

الإسلامي»[1]، هو قول يكرر بصورة باهتة التعصب الأرسطي القديم، مع فارق واحد هو أن تعصب أرسطو كان «عرقيًّا» يفرق بين الأجناس في حين أن تعصب مونتسكيو تعصب ديني يعمد إلى التفرقة بين الأديان، فليس في الدين الإسلامي ما يمنع من تطبيق الديمقراطية التي تعتمد على الحرية والعدالة والمساواة وغيرها من الأفكار التي تجد الدعوة إليها واضحة صريحة في آيات الكتاب الكريم. فإن احتج أحد بأن التاريخ الإسلامي حكمه طغاة، أشرنا بالرجوع إلى ما سبق أن ذكرنا بالتفصيل عن «الواقع.. والمثال» في الفصل الثاني من الباب الأول من هذا البحث[2].

5- وسائلنا في الوصول إلى الحكم الديمقراطي ثلاثة:

أ - التربية، (في المدرسة، في المنزل... إلخ)، تعويد الطفل احترام الرأي الآخر، واحترام رأيه هو نفسه، كرامة الإنسان وقيمته، التفكير الحر، رأى الأغلبية..إلخ.

ب- القانون واحترامه مما يتيح ممارسة المبادئ الديمقراطية على مستوى جماعي، فإن كان هناك من هو فوق القانون اختفت الديمقراطية.

جـ- أجهزة الإعلام المختلفة: الإذاعة التليفزيون، الصحف، فهي كلها يمكن أن تقوم بدور بالغ الأهمية لبث المبادئ الديمقراطية.

(1) مونتسكيو «روح الشرائع» المجلد الثاني ص 178 - ترجمة عادل زعتر.
(2) قارن ص 135 وما بعدها من هذا البحث.

6- ليس ثمة ضرورة لمحاكاة النموذج الأمريكي، أو الفرنسي أو الإنجليزي، في النظام الديمقراطي، فهذه كلها صور من الديمقراطية تختلف، فيما بينهما اختلافا ظاهريًّا، وفقًا لتاريخ كل بلد وثقافته، لكنها تتفق جميعًا في الأسس أو المبادئ العامة وهي:

أ - أن يكون الشعب مصدر السلطات جميعًا. (بالفعل - أي بالممارسة، وليس بالاسم أي يكون ذلك نصًا من الدستور وكفى!).

ب- أن تكون الحرية (في الفكر والقول والعمل، حرية العقيدة وحرية التعبير..إلخ) مكفولة للجميع (فعلًا، لا كلامًا، فقد شبعنا من الكلام!).

جـ- أن تتحقق المساواة بين أفراد الشعب.

د - احترام الإنسان: قيمته وكرامته.. إلخ.

7- هذه وسيلتنا الوحيدة للفرار من الطاغية، و إلا فإن علينا أن نختار عضوًا من العائلة الكريهة - عائلة الطغيان - التي سبق أن عرضنا لها في الفصل الثالث من الباب الأول من هذا البحث. و إن كان علينا أن نعلم أن للطغيان صورًا شتى، لكن أسوأها جميعًا هو الطاغية الذي يرتدي صراحة عباءة الدين. و إن كانت جميع صور الطغيان لابد أن تعطي لنفسها صفة القداسة حتى يتحول الطاغية في نهاية الأمر إلى «ولي النعم»! على نحو ما كان لقب الحاكم عندنا إلى عهد قريب. أما العهد البعيد فقد بدأنا فيه بتأليه الحاكم حتى أصبح هو: ملك الناس، إله الناس!

8- لا جدال في أن انفصام الشخصية الظاهر جدًا في الشخصية الشرقية جاء نتيجة لحكم الطاغية الذي يعتمد - كما رأينا مرارًا - على مبدأ الخوف وبث الرعب في قلوب الناس، فلا يستطيع أحد أن ينتقد أو يناقش ولا أن يفكر بصوت مسموع، فيلجأ إلى الرياء والنفاق والتملق في الظاهر،ولا يفصح عما بداخله إلا إذا اختلى بصحبة يثق فيها، وهكذا يعتاد أن تكون له شخصية ظاهرة علنية هي التي تقوم «نعم» بصفة مستمرة، وشخصية خفية مستترة يمكن أن تقول «لا» في أوقات خاصة!

9- سوف ينعكس هذا الانقسام في جميع سلوك الفرد وتصرفاته بحيث يكون نمطًا للشخصية:فتراه أولًا يهتم بالشكل دون الجوهر، فيكون تدينه زائفًا لا يأخذ من الدين سوى جانبه الظاهري السهل ويترك الجوهر الذي يتجلى في الصدق، والإخلاص، والأمانة، والتعاون، والضمير، والعدل والإحسان.. إلخ وتراه ثانيًا يفصل نفسه عن وطنه:فالحكومة، والشرطة، والصحافة شيء ومصلحته هو الخاصة واهتماماته شيء آخر. وهي القسمة راجعة إلى أنه لم يشترك في حكم بلاده، ولا في تشريع القوانين التي يخضع لها، ولا في إعداد الخطة التي يسير عليها إلخ - فذلك كله كان متروكا «للقائد الملهم»!.

10- أجمع علماء الاقتصاد من أمثال: عالم الاقتصاد الإنجليزي آدم سميث Adam Smaith (1723 - 1790) وعالم الاقتصاد الفرنسي روسي Rossi (1787 - 1848) والفيلسوف الفرنسي جويو Juyau (1854 - 1888) على وجود علاقة قوية بين الحرية والإنتاج، فالمواطن الحر ينتج أكثر وبنوعية أفضل.

يقول سميث في كتابه الشهير «ثروات الأمم»:

«إن العامل الحر يفضل العبد في الإنتاج، أن القهر يحجب نشاط الإنسان وذكاءه و إبداعه»[1].

وعبودية الإنسان - فيما يقول روسي - تعطل موهبة، وتقيد إرادته ولا يقتصر ضررها على ميدان الأخلاق فحسب، بل يتعداه إلى الإضرار بالنظام الاقتصادي أيضًا[2].

11- إذا كان الناس على دين ملوكهم، و إذا كان هؤلاء الملوك طغاة، استطعنا أن ندرك بسهولة أن أي مواطن في الشرق يتحول إلى طاغية، فالأب الشرقي طاغية، والزوج الشرقي طاغية، والمعلم الشرقي طاغية، والموسر الشرقي طاغية.. إلخ ومن يتغنى، في الشرق، بالديمقراطية والحرية لا يريدهما إلا لنفسه فقط، أي أن يعبر هو عن آرائه في حرية واطمئنان، لكنه يستبد برأيه عند النقاش، و يرفض أن يتنازل عن هذا الرأي لصالح الأغلبية، وكثيرًا ما يغضب و يهتاج لأنه لم يؤخذ برأيه!.

12- إذا اختفت الحرية، كما هي الحال في نظم الطغيان، اختفى العقل معها، إذ ما قيمة العقل إذا لم يكن في استطاعتي أن أسترشد به؟، إذا كان لابد لي من السير في طريق واحد، هو الذي يرسمه الحاكم، فماذا يمكن للعقل أن يفعل؟. الواقع أن الحرية والعقل وجهان لشيء

(1) اقتبسه الدكتور عبد السلام الترمانيني في كتابه «الرق: ماضيه وحاضره» ص 209.
(2) المرجع نفسه.

واحد، ولهذا فإن الله القادر على كل شيء عندما خلق الإنسان العاقل خلقه حرًا، في اللحظة نفسها، وللسبب نفسه. ولهذا فإنه يسهل عليك جدًّا أن تفهم سر العالم اللامعقول الذي نعيش فيه والسبب في وجود التيارات اللاعقلية في حياتنا، وألوان الخرافة المتنوعة التي تحكم ثقافتنا وتراثنا.. إلخ؛ السبب واحد: حكم الطاغية!

13- عندما يمكن حكم الطاغية لنفسه لا يكون أمام الناس سوى الاستسلام والشكوى والأنين، ثم الالتجاء إلى سلاح وحيد صاحبه مجهول، ولهذا يتوارون خلفه، وهو سلاح النكتة والسخرية، «فالنكتة السياسية هي تعبير عن قصور في البناء الديمقراطي.. وهي وسيلة لتوصيل صوت الشعب إلى الحاكم.. ولو وجدت الديمقراطية فسوف تبقى النكتة السياسية الموجهة ضد الحاكم الطاغية، أو ضد الحاكم الفرعون. لكن ستظل الناس تعبر عن نفسها بالنكتة في مجالات أخرى..»[1] فهل عرفت السبب في انتشار النكتة السياسية بيننا؟ السبب واحد: حكم الطاغية!

14- ليس ثمة ما يدعو، في النهاية، إلى القول بأن حكم الطاغية يقضي على مبادئ الأخلاق، فهي نتيجة حتمية لحكم يبني على الخوف، وبث الرعب في قلوب الناس، واستخدام السيف أو التلويح باستخدامه في كل لحظة، فمن ذا الذي يستطيع في مثل هذا الجو الخانق أن يقول

(1) د. سعد الدين إبراهيم - مجلة الوادي - عدد يناير 1982، ص 34 (نقلاً عن كتاب عادل حمودة: «كيف يسخر المصريون من حكامهم؟» ص 134 - دار سفنكس للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة 1992».

الصدق أو يشـهد الحق؟ أو يتمسـك بأهداب الفضيلة؟ أو يرفض أن يرتشي؟ أو بأبي شـهادة الزور؟! ثم إذا كان الحاكم نفسه يدعو الأخ ليتجسس على أخيه، والطالب على معلمه، والموظف على رئيسه.. إلخ فكيـف أن تكون هناك أخلاق؟!، وهل يمكن أن تكون هناك مبادئ أخلاقية من دون فرد يحترم نفسه، وتحترمه الدولة وتصون كرامته؟!

سادسا: خاتمة في توزيع الطغيان

في استطاعتنا أن نقول إن الطاغية أشبه بالزلزال المدمر، غير أن «توابعه» أشـد خطـرًا، في أثارها من الزلـزال الأرضي، إنها تعمل على تحطيم الإنسـان، وتدمير النفس البشرية، بحيث تختفي إنسـانية الإنسان وكرامته ويهبط إلى مسـتوى الدواب. و إذا تسـاءلنا عن هذه «التوابع» فهي كثـيرة نذكر بعضًا منها فيما يلي:

أولاً: غياب العقل:

أشرنـا في الفقرة الثانيـة عشرة من النتائج السـابقة إلى أنـه إذا اختلفت الحريـة في نظام الطغيـان، اختفى العقل معها. لكن ذلـك يحتاج إلى قليل من الإيضاح لأهميتـه القصوى، ولنبدأ من البداية لنقـول: إن الله القادر على كل شيء، وهب الإنسـان الحريـة في نفس اللحظة التي وهبـه فيها العقل ولنقس السـبب. وقد صورت الديانـات المختلفة الإنسـان الأول - آدم وامرأته وهما يعيشان في جنة عدن في انسجام تام مع الطبيعة (وهي الحالة التي أطلق عليها هيجل اسم حالة البراءة الأولى): فلا عمل، ولا معرفة، ولا اختيار، ولا حرية، ولا تفكير.. ثم تروى القصة أن الله حرم على الإنسـان أن يأكل من شـجرة

المعرفـة (معرفـة الخير والشر). ولكنـه عصى الأمر الإلهـي وأكل منها. ولم يكن ذلك سوى تعبير عن الحرية البشرية التي اختارت فعلًا مخالفًا كان من نتيجته أن استيقظ الإنسان وعرف أنه عريان[1]. وقول إريك فروم.

«لقـد كان ذلـك أول فعل مـن أفعال الحرية، وأول فعل إنسـاني، وهـو في مضمونه المـادي - أي الأكل من شـجرة المعرفـة - بداية لاستخدامه العقل».

على اعتبار أن المعرفة «إشـارة رمزية للعقل، وهكذا يصبح فعل الحرية هو نفسـه فعـلا عقليًّا. وبأي معني شـئت أن تفهم به العقل، سـواء قلت إنه ملكة التمييز بين الحق والباطل، أو الخير والشر، أو أنه وسـيلتنا للمعرفة، أو أنـه ملكة نقدية أو أداة إدراكية.. إلـخ إلخ - فلا قيمة له بدون الحرية، فإذا غابـت الحرية اختفى العقل معهـا في الحال. ولقد كان أديبنـا الكبير نجيب محفوظ بارعًا حقًا في تشخيص غيبة العقل نتيجة لغياب الحرية - الأمر الذي أدى إلى هزيمـة يونيـو 1967 في روايتـه المهمة والموحية «ثرثـرة فوق النيل» التي صدرت عام 1966م، قبل بالنكسـة بعام واحد، وكأنها تتنبأ بقرب وقوع الكارثة. عندمـا صور مجموعة من المثقفين وقد انسـحبوا مـن الحياة العامة، وأدمنـوا المخدرات، وغرقـوا في غيبوبة فكر فقد قيمتـه فتحول إلى عبث لا معـني له. لأنه إذا غـاب العقل فقـد تحـول كل شيء إلى عبث: «والعبث هو فقـدان المعنى، معـني أي شيء. وانهيار الإيمان: الإيمان بأي شيء. والسـير في الحيـاة بدافع الـضرورة وحدهـا دون اقتناع، وبلا أمـل حقيقي. و ينعكس

(1) راجع القصة وتفسيرها الفلسفي في موسوعة العلوم الفلسفية لهيجل - ترجمة د.إمام عبد الفتاح إمام - المكتبة الهيجلية - مكتبة مدبولي بالقاهرة - فقرة 24

على الشخصية في صورة انحلال وسلبية. وتمسي البطولة خرافة وسخرية. ويستوي الخير والشر..»[1] وإذا أصبح الفكر بلا قيمة، وتقطعت الروابط بين المواطن ووطنه، بحيث يفقد انتماءه وولاءه ويهرب من مسئوليته. فإن النتيجة المؤكدة هي الهزيمة البشعة التي ما زالت آثارها المدمرة تطحننا حتى اليوم: سياسيًّا، واقتصاديًّا، واجتماعيًّا ودينيًّا فيما نسميه مرة بالإرهاب ومرة أخرى بالتطرف الديني - يقول واحد من هؤلاء المثقفين وهو يدافع عن موقفهم:

«لسنا أنانيين لهذه الدرجة، ولكننا رأينا أن السفينة تسير دون حاجة إلى رأينا ومعاونتنا. وأن التفكير بعد ذلك لن يجدي شيئًا، وربما جر وراءه الكدر وضغط الدم»[2].

خلاصة ذلك كله أن الارتباط وثيق جدًّا بين الحرية، والعقل والتفكير. والمعرفة فذلك طريق واحد، فإذا غابت الحرية نتيجة لحكم الطاغية ترتب على ذلك في الحال اختفاء العقل، ولم يعد التفكير يجدي شيئًا، وسقط الإنسان في هوة الجهل واللامبالاة!

ثانيا: الحرية هي ماهية الإنسان:

إذا كان العقل والحرية وجهين لعملة واحدة، وإذا كان الإنسان هو الموجود العاقل المفكر - كان في نفس اللحظة هو الموجود الحر. ومن هنا

(1) قارن مقالنا: «نجيب محفوظ..والمسطول» في كتابنا في «أفكار ومواقف» ص 598 - الناشر مكتبة مدبولي - بالقاهرة.
(2) نجيب محفوظ: «ثرثرة فوق النيل» ص56.

كانت ماهية الإنسان هي الحرية بقدر ما هي العقلانية على حد سواء. فإذا فقد حريته فقد إنسانيته، وكرامته وقيمته، وهبط إلى مستواه الدواب. ولهذا فإن أرسطو لم يخطئ عندما وصف العبيد بأنهم أدوات وآلات في المنزل، أو حيوانات تملكها الأسرة فيما تملك من متاع.ونظام الحكم السيئ - وهو الحكم الاستبدادي الذي يسلب المواطنين حريتهم، و يفقدهم فرديتهم، واستقلالهم وتمايزهم - يؤدي في الحال إلى عجن المواطن مع غيره من المواطنين في هوية واحدة، ليتحول الجميع إلى قطيع من الغنم. ولهذا السبب يغيب الآخر من أفق الأنا العربية حتى بين المثقفين. بل إن كلًا منهم يتحول إلى شخصية مستبدة تريد أن تفرض رأيها على الغير، لأن الفكر عندنا يسير باستمرار في طريق واحد من أعلى إلى أسفل، ولا يرتد أبدًا ليكون حوارًا بين شخصيات متكافئة!

ثالثًا:غياب القيم الأخلاقية:

من أخطر توابع الطغيان اختفاء القيم الأخلاقية التي تميز الإنسان عن الحيوان باعتباره كائنًا أخلاقيًّا، فالأخلاق، كما يقول هيجل بحق - طبيعة ثانية للإنسان: فهو على حد تعبير «هارتمان»: الموجود الحامل للقيم. ونحن نقصد هنا على وجه التحديد «الوعي الذاتي الأخلاقي» الذي يعتمد أساسًا على أخلاق الضمير. ذلك لأن القيم الأخلاقية التي يبرزها نظام الحكم السيئ هي التي تنبع من الخوف والرهبة وهي «أخلاق خارجية» أي من الظاهر فحسب، تسعى إلى الجزاء الخارجي عريضًا، في حين تختفي الأخلاق الداخلية التي ترتكز على الوعي الداخلي - أي على الضمير. وهكذا يحل الكذب محل الصدق، والرياء والنفاق محل الإخلاص والوفاء، الجبن محل

الشـجاعة.. إلخ. ويصور نجيب محفوظ نفاق الكتاب في العهد الناصري في هذه العبارة الجميلة:

«كم قلم يكتب عن الاشـتراكية على حين تحلم أكثرية الكاذبين بالاقتناء، والإثراء، وليالي الأنس في المعمورة..!»[1].

رابعا: بلاش فلسفة!

هـذه عبارة تتردد كثيرًا، في مجتمعنا العربي، على ألسـنة الناس في الشـارع حتى «أصبحت الفلسـفة في بلادنا سـيئة السـمعة، وهذا أمـر ليس غريبًا في مجتمـع يتخذ موقفًـا عدائيًّا مـن العقل ويطمـئن أقصى غايـات الطمأنينة إلى الخرافـة..»[2]. ولقـد روجت أجهزة الإعلام المختلفة لهـذه العبارة بتكرارها كثيرًا على ألسـنة أبطال المسلسـلات التليفزيونية والأفلام السينمائية - إلخ» ولا شـك أن ترديدها يعد من أخطر الأمـور على مجتمعنا..[3] والواقع أن هذه العبارة بالغة الأهمية لأنها تلخص، في رأينا، موقفًا من العقل، فضلًا عن النفور من الفلسفة. وهما موقفان مرتبطان تمامًا. فما دلالة هذه العبارة؟ وبمعني آخر: لم ينفـر المجتمع العـربي من الفلاسـفة - بدرجات متفاوتـه - ويهز المواطن كتفيه، ويمط شـفتيه اسـتخفافًا إذا ما طرقت هذه الكلمة مسامعه؟ الجواب باختصار شـديد، أن الفلسـفة في النهاية «عقل» أو هي ترتكز، أساسًـا، على العقـل. ولمـا لم يعد للعقل قيمـة في بلادنا - نظر لغياب الحريـة - فلم يعد ثمة

(1) نجيب محفوظ «ثرثرة فوق النيل» ص 52.

(2) د. حسين على حسن «الفلسفة والتليفزيون» مقال بالأهرام المسائي بتاريخ 1 /12 /1991

(3) محمود أمين العالم «معارك فكرية» دار الهلال بالقاهرة عام 1970ط2

أهمية للعقل ولا للفكر ولا لكل ما يرتبط بهما فكأن كل من يقول لك «بلاش فلسفة» يقول في الواقع «بلاش عقل» لأننا لم نعد بحاجة إليه ولا قيمة للفكر الذي ربما جر وراءه الكدر وضغط الدم، كما سبق أن ذكرنا.وهكذا أصبح الفكر بدوره، في بلادنا، مرادفًا للهم، والغم، والكرب العظيم..بحيث لا تجد الأم التي تحنو على أبنائها أجمل من أن تدعو الله أن يجنبهم «الفكر» (الذي يميز الإنسان على الحيوان!) - وهو دعاء يرتبط أوثق ارتباط بعبارة «بلاش فلسفة» السابقة فصدرها واحد ألا وهو: غياب العقل نتيجة لغياب الحرية!

ولم يكن من قبيل المصادفات - صديقي القارئ - أن تظهر الفلسفة في أثينا المجتمع اليوناني الحر، لا في إسبرطة المجتمع العسكري المستبد، ففي أثينا تمتع المواطن بدرجة كبيرة من الحرية، واستطاع أن يعمل العقل في شئون الحياة وأن يحاول تفسير ظواهر الطبيعة - بعيدًا عن الأساطير - وظواهر المجتمع والتاريخ. بل إن ينقد الأساطير نفسها، وأن يضع البشرية على طريق الخلاص من الخرافة والتفسيرات اللا معقولة، وأن يجعل شعاره عبارة سقراط الخالدة: «إن الحياة التي لا تخضع للفحص والنقد ليست جديرة بأن يحياها الإنسان!» ومن هنا فقد ذهب هيجل إلى أن «ظهور الفلسفة يستلزم الوعي بالحرية.وذلك يعني أن الفلسفة تتطلب شعبًا يقوم وجوده على هذا المبدأ..»[1].

خامسا: الشخصية العاجزة:

غياب الحرية نتيجة لحكم الطغيان، أدى إلى غياب العقل والفكر

(1) Hegel «slectures on The History of philosophy» Eng. Trams. By T.M. Knox,p.166.

واختفاء الأخلاق فما هي الشخصية التي تظهر لنا كمحصلة لذلك كله؟ تظهر شخصية المواطن الذي تطحنه مشاعر العجز والدونية على المستوي النفسي[1]. وعلى المستوى العقلي الشخصية التي تحيا في عالم اللا معقول، وتعشعش الخرافة في ذهنها، وتحل التفسيرات الغيبية للظواهر الطبيعية والاجتماعية والإنسانية، عند هذه الشخصية، محل التفسيرات العلمية والموضوعية. وهكذا تظهر أمامنا أيضًا الشخصية السلبية العاجزة عن اتخاذ قرار أو الإقدام على فعل مسئول.

ويصف لنا نجيب محفوظ الأسباب التي أدت إلى تكوين هذه الشخصية بقوله «كان الحاكم في العهد الناصري، قد طلب من المصريين اعتزال السياسية فتحول المصري من كائن فعال إلى سلبي متفرج. من موجود مشارك إيجابي إلى «هيكل عظمي» يتقبل أي شيء. والأخطر من ذلك أنه سلب من داخل المواطن شجاعته، وإحساسه بالكرامة، وإحساسه بالأمان، وهذا شيء فظيع إلى أقصى حد..»[2].

سادسا: التناقض:

وأخيرًا إذا غاب العقل غابت قوانينه معه، ومركزها الاتساق و «عدم التناقض». ولهذا فقد أصبح من الطبيعي جدًا، ومن المألوف جدًا أن نستمع في

(1) بل قد يفقد الإحساس بكل شيء حتى الخوف نفسه! « لأننا نخاف البوليس، والجيش، والإنجليز والأمريكان والظاهر والباطن، فقد انتهى بنا الأمر إلى ألا نخاف من شيء قط، الثرثرة ص 24.

(2) قارن مقالنا: «نجيب محفوظ.. والمسطول» في كتابنا «أفكار.. ومواقف» الناشر مكتبة - مدبولي بالقاهرة ص 598.

أحاديثنا اليوميـة، وأن نقرأ في كل مكان آراء وأفكار وتصريحات وعبارات متناقضـة دون أن يتوقف عندها أحد من كثرة الإلف والعادة. أعني أنه كان مـن الطبيعـي أن يقع المواطن العربي في التناقـض دون أن يدرك ذلك - وليس المواطن العادي فقط، بل والمثقف أيضًا! بل حتى الرجل المتدين فأنت لا تجد التناقض في سلوكه فحسب، و إنما في أقواله وأحاديثه، فهو لا يجد غضاضة في الحديث عن حرية الرأي والتسـامح، والمسئولية الفردية التي يخضع لها كل مؤمن، وأن يقول لك في الوقت ذاته: «اعتنق ما اعتنق و إلا لعنك الله!» وهي الصيغة التي تحولت الآن إلى: «اعتنق ما اعتنقه و إلا قتلتك!».

وليـس المواطن العادي، ولا المثقف ولا المتدين - هو وحده الذي يقع في تناقضات لا حصر لها دون أن يعي ذلك. بل الحاكم أيضًا. ولما كان من الصعب أن نتحدث عن الحكام الأحياء - لأسـباب يعلمهـا القارئ جيدًا، فليس ذلك من الفطنة ولا من الحكمة! فلا أقل من أن نترحم على الرئيس السادات الذي كان رحمـه الله، نموذجًا جيـدًا للحاكم الدائم الوقـوع في التناقض - و إن لم يكن بدعًا بين الحكام العرب في ذلك! ومن أقواله الشهيرة والكثيرة - التي لا تنسى «سوف أبطش بهم ديمقراطيًا» مع أن البطش والديمقراطية نقيضان!